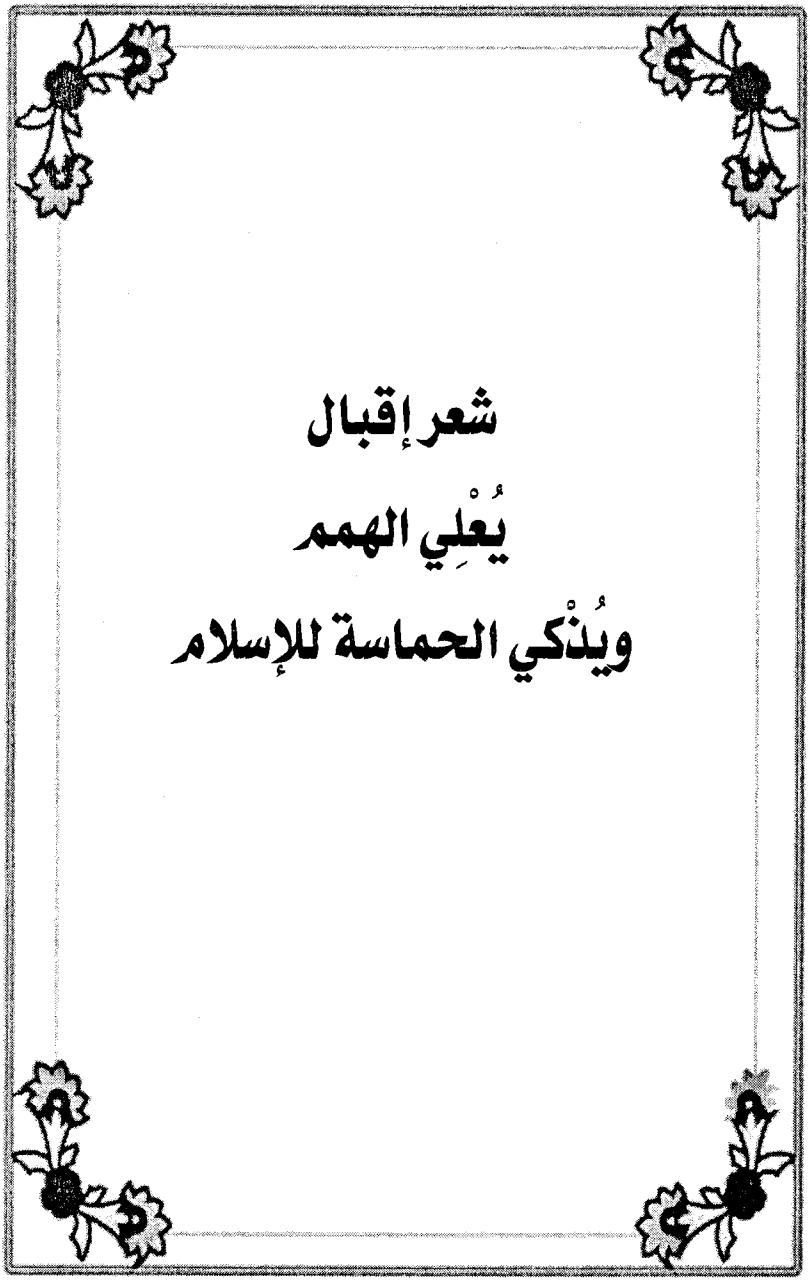

شعر إقبال

يُعْلِي الهمم

ويُذْكي الحماسة للإسلام

شعر إقبال يُعْلِي الهمم ويُذْكي الحماسة للإسلام

□ قال العلَّامة أبو الحسن الندوي عن محمد إقبال: «.. إني أحببتُه، وشُغِلتُ به كشاعر «الطموح»، والحب والإيمان، وكشاعر له عقيدة، ودعوة، ورسالة، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية، وكأعظم ناقدٍ لها، وحاقدٍ عليها، وكداعية إلى المجد الإسلامي، وسيادة المسلم.. أشهد على نفسي أنِّي كلما قرأتُ شعره جاش خاطري، وثارت عواطفي، وشعُرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي للحماسة الإسلامية في عروقي، وتلك قيمة شعره، وأدبه في نظري».

□ وقال الأستاذ عباس العقَّاد: «.. إن إقبالًا هو طرازُ العظمة الذي يتطلَّبه الشرق في الوقت الحاضر، وفي كُلِّ حين؛ لأنها عظمةٌ ليست بالدنيويَّة المادية، وعظمةٌ ليست بالأخروية المُعرضة عن هذه الدنيا، وهو زعيم العمل بين العدوَّتين من الدنيا والآخرة قوّام بين العالمين كأحسن ما يكون القَوَّام».

□ وقال الدكتور طه حسين: «شاعران إسلاميان رفعا مجدَ الآداب الإسلاميَّة إلى الذروة، وفرضا هذا المجد الأدبَّي الإسلاميَّ على الزمان، أحدهما إقبال شاعر الهند والباكستان..».

□ وقال الدكتور عبد الوهاب عزَّام: «لا أعرف كشعر إقبال، معرِّفًا بالحياة، داعيًا إليها، معظِّمًا الإنسان، مُشيدًا بمكانته في هذا العالم، نافثًا الأمل، والهمَّة، والإقدام في نفوس الناس».

□ وقال الدكتور أحمد الشرباصي: «.. ولم أر شاعرًا يتصوَّر للمسلم صورةً مثاليَّةً عاليةً كتلك الصورة التي يرسمها إقبال في مواضع كثيرة عن

شعره، إنَّه يصوِّر المسلم حينًا كأنه ماء في رقَّته، وحديد في شدَّته يهزأ بالصِّعاب، ويعلو على التراب، ويسري مع الأفلاك، ويجري مع الأملاك..».

□ وقال الدكتور أحمد حسن الزيَّات: «.. فإذا كان حسَّان رضي الله عنه شاعر الرسول ﷺ، فإنَّ إقبالًا شاعر الرسالة»(١).

□ قال رحمه الله:

إنْ تَضِق بالجهاد في الأرض ذَرعًا ... فحرامٌ مسراكَ فوقَ السَّحاب (٢)

□ وقال عن الصبح الذي يريده:

إنَّا لنجهلُ مطلعَ الصُّبح الذي ... يُدعى بيوم أو غدٍ في الأزمُن

لكنَّما الصبحُ الذي ارتجَّت له ... ظُلَمُ العوالم، من أذانِ المؤمن

كلمات للحياة:

□ لصرعى الحضارة الغربية من تدَنَّت هممهم يقول إقبال: «لم يستطع بريقُ العلوم الغربية أن يُبهر لبِّي، ويعشي بصري، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة».

□ ويقول: «مكثت في أتُون التعليم الغربي؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود».

□ ويقول: «لم يزل، ولا يزال فراعنةُ العصر يرصدونني، ويكمنون لي، ولكني لا أخافهم، فإني أحمل اليدَ البيضاء، إنَّ الرجل إذا رُزِق الحبَّ

---

(١) ديوان «محمد إقبال» (٢/ ١٣، ١٤) ـ إعداد سيد عبد الماجد الغوري- دار ابن كثير- سورية.

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٩).

الصادق، عرف نفسه، واحتفظ بكرامته، واستغنى عن الملوك والسلاطين، لا تعجبوا إذا اقتنصتُ النجوم، وانقادت لي الصِّعاب، فإني من عَبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرَّفت بوطأته الحصباء، فصارت أعلى قدْرًا من النُّجوم، وجرى في إثره الغبار، فصار أعبق من العبير».

□ وفي ذكر مُقوِّمات حياةِ الأمة الإسلامية لابدَّ من علو الهمة في الاتصال الدائم بنبيِّها، والتشبُّع بتعاليمه واتباعه، والتفاني في حبِّه، يقول إقبال: «إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ، وهو أصلُ شرفنا، ومصدر فخرنا في هذا العالم، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى، كان يرقد على الحصير، إنَّ هذا السيد الذي نام عبيدُه على أسرَّة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد، فكان أن وُجدت أمَّةٌ، ووُجد دستورٌ، ووُجدت دولةٌ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعًا، وإذا كان في الحرب فسيفُه يقطر دمًا، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين، بأبي هو وأمي، لم تلد مثله أمٌ، ولم تُنجِب مثلَه الإنسانية، افتتح في العالم دورًا جديدًا، وأطلع فجرًا جديدًا، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع، ويأكل مع مولاه على خِوانٍ واحدٍ، جاءته بنت حاتم أسيرةً مقيَّدةً سافرة الوجه، خجلةً مطرقةً رأسها، فاستحيا النبي ﷺ، وألقى عليها رداءه.

نحن أعرى من السيدة الطائية، نحن عراةٌ أمام أمم العالم، لطفه وقهره كلُّه رحمة، هذا بأعدائه، وذلك بأوليائه، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة، وقال: لا تثريبَ عليكم اليوم! نحن المسلمون من الحجاز، والصين، وإيران، وأقطار مختلفة، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد، واحدة الطيب والرائحة، لماذا لا أحبُّه، ولا أحنُّ إليه،

وأنا إنسان، وقد بكى لفراقه الجذع، وحنَّت إليه سارية المسجد؟! إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كله، أنعم بمدينة فيها الحبيب!»[١].

□ ويقول في دعائه لربه: «أنت غنيٌّ عن العالمين، وأنا عبدك الفقير، فاقبل معذرتي يوم الحشر، وإن كان لا بدَّ من حسابي فأرجوك يا رب، أن تحاسبني بنجوةٍ من المصطفى ﷺ، فإني أستحي أن أنتسبَ إليه وأكون في أمته، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي»[٢].

□ مَن تتبَّع التاريخ علم أن محبةَ سلفنا لنبيهم وعلوَّ همتهم في اتباعه والإيمان به كانت مصدرَ علمهم العميق، وحكمتِهم الرائعة، ومعانيهم البديعة، وبطولتهم الفائقة، وشخصيَّاتهم الفذَّة، وعبقريتهم النادرة، إليه يرجع الفضلُ في غالب عجائب الإنسانية، ومعظم آثارهم الخالدة في التاريخ، فلما تجرَّد الخلَفُ من ذلك، كانوا صورًا من لحم ودم، وكانوا قطيعًا من غنم.

لقد «اكتست صحراءُ العرب بفضل هذا النبيِّ الأمي حلَّةً أنيقة، وانبتت زهرةً يانعة، إن عاطفةَ الحرية نشأت في ظل هذا النبي، بل ترعرعت ونمت في حِجره، وهكذا كان يوم هذا العالَمُ المعاصر مدينًا لأمسه.

لقد وضع قلبًا نابضًا خفاقًا في جسد الإنسان البارد، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة.

هزم كلَّ طاغوت، وحطَّم كل صنم، وأورق به كلُّ غصن يابس وأزهر وأثمر، إنه رُوحُ معركة بدر وحُنين، وإنه مربِّي الصِّدِّيق والفاروق

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٠- ٣١).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣١).

والحسين.

أذانُ صلاة الحرب وجرسُ سورة «الصافات» غيضٌ من فيضه، جعل سيف صلاحِ الدين البتار، ونظرة بايزيد النافذة مفتاحَ كنوز الدنيا والآخرة.

جرعةٌ من كأسه أورت العقل والقلب.

واجتمع بها العلمُ والحكمة والدين والشرع، والإدارةُ والحكم مع قلوب أواهةٍ مخبتة منيبة في الصدور.

إن جمالَ قصر الحمراء، والتاج الذي نال خراج الملائكة، وإعجاب القدِّيسين هو نفحةٌ من نفحاته، ولمحةٌ قصيرة من لمحاته، وومضته من أنواره وبركاته.

ظاهرُه تلك التجلياتُ والنفحات، وباطنُه درٌّ مكنون لم يطلعْ عليه العارفون، ولم يصِلْ إلى كنهه السالكون.

فلا ريب أنه يستحقُّ ثناءَ الجميع وشكرَهم وحمدهم؛ لأنه أسبغ نعمةَ الإيمان على هذه الحفنة من التراب».

شفةٌ تُحيي وعينٌ تَجذبُ ... وحَّدا الأشتات هذا عجَبُ [1]

يَهَبُ النَّاسَ جديدَ النَّظر ... يَجْعَلُ البيدَ كروض نَضِر [2]

فترى الأمَّةَ مِنْهُ سائره ... بلهيب مِنْهُ حَرَّى ثائره

شررًا في قلبها قَدْ أشعلا ... فأحالَ الطِّينَ فيها شُعَلا

---

(١) كلامه ونظره يجذب البعيد إليه حتىٰ يصيرا كنفسٍ واحدة.

(٢) يهب الناس نظرًا جديدًا فيرون الأشياء علىٰ غير ما رأوها قبلاً، فرب حسن يصير قبيحًا، وقبيح يصير حسنًا.

سيرهُ يعطي الترابَ البصَرا ... فإذا الذرَّةُ سيناءَ تَرَى [١]

عارِيَ العقل بجداوه كسا ... وَهَبَ الثورةَ هذا المفلِسا [٢]

ينفُخُ الجمرة في موقِده ... ويذيب الغِشَّ من عسجده [٣]

ويفكُّ العبدَ مِنْ أغلاله ... ويُجير القِنَّ من أقياله

يجذب الإنسانَ شطر المقصد ... جاعلَ الشَّرع زمامًا في اليدِ

نكتةَ التوحيد يوحيها إليه ... أدبَ الطاعة يمليه عليهْ [٤]

نشيد عُلاة الهِمَم

الصِّينُ لنَا والعُرْبُ لَنَا ... والهِنْدُ لنَا والكُلُّ لَنَا

أضْحَى الإسلامُ لنَا دِيْنًا ... وجَمِيْعُ الكَوْنِ لَنَا وَطَنَا

تَوحيدُ الله لنا نورٌ ... أعْددنا الرُّوحَ له سكَنا

الكَوْنُ يَزولُ ولا تُمْحى ... في الدَّهْرِ صَحائفُ سُؤْددِنَا

بُنيتْ في الأرضِ مَعابِدُها ... والبَيتُ الأوَّلُ كَعْبَتُنَا

هُو أوَّل بيتٍ نحفَظُهُ ... بحياةِ الرُّوحِ ويحفَظُنَا

في ظِلِّ السَّيف تربَّيْنا ... وبَنَيْنا العِزَّ لِدَولَتِنَا

---

(١) ترى الذرة على ضآلتها طور سيناء. الذرة لا ترى إلا في نور الشمس، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات، وينير الظلم، فترى الذرة طور سيناء.

(٢) العقل عريان مفلس حتىٰ يمده الرسول فيكسوه ويغنيه أي: هو يهدي العقل ويقويه.

(٣) يشعل العقل، ويميز له الخبيث من الطيب.

(٤) يقيده بالشريعة ليجذبه إلى المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فترىٰ الإنسان حرًا من عبادة الكبراء مقيدًا بالشرع.

عَلَمُ الإسلامِ على الأيَّا ... مِ شعارُ المجدِ لِلَّتِنَّا

بهلالِ النَّصر يُضيءُ لنا ... ويُمَثِّل خِنجَر سَطْوَتِنَا

وأذانُ المُسلِمِ كانَ له ... في الغَرْب صدًى من هِمَّتِنَا

قولوا لِسَماء الكَوْنِ لقدْ ... طاوَلْنا النَّجْمَ بِرِفعَتِنَا

يا دَهْرُ لقد جَرَّبتَ على ... نيرانِ الشِّدَّة عَزْمَتَنَا

طُوفانُ الباطِل لم يُغرِقْ ... في الخَوفِ سفينةَ قوَّتِنَا

وعلى أغصانِكَ أو كارٌ ... عمَرَتْ بِطلائِعِ نَشأتِنَا

يا دجلةُ هَلْ سجَّلت عَلى ... شطَّيكَ مآثِرَ عزَّتِنَا

أمواجُكِ تَروي للدُّنيا ... وتُعيدُ جواهِرَ سيرَتِنَا

يا أرْضَ النورِ من الحَرَمَيْـ ... ـن ويا ميلادَ شريعَتِنَا

رَوْضُ الإسلام ودَوحتُهُ ... في أرْضِكِ رَوَّاها دمُنَا

ومُحَمَّد كان أميرَ الرَّكْـ ... ـبِ يقودُ الفوْزَ لنُصرَتِنَا

إنَّ اسمَ محمَّدٍ الهادي ... رُوحُ الآمالِ لِنَهْضَتِنَا

دَوَّتْ أنشودةُ «إقبالِ» ... جَرَسًا يَحدو فيه الزَّمنَا

لِيُعيدَ قوافِلَنا الأولَى ... في المَجدِ ويبعَثَ أُمَّتَنَا[1]

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٩١- ٩٢).

الشكوي وجواب الشكوى

«حديث الروح»

لا بد لعالي الهمَّة أن يعرف قدْر نفسه وقدْر أمته.

□ يقول محمد إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

شكْوايَ أمْ نجْوايَ في هذا الدُّجى ... ونجـومُ لـيلي حُـسَّدي أو عُـوَّدي
أمـسيتُ في المـاضي أَعِـيْشُ كـأنما ... قطعَ الزَّمانُ طريق أَمْسِي عن غَدِي
والطـيرُ صـادحةٌ عـلى أَفْنَانِهَـا ... تبكـي الرُّبـى بأنينهـا المتجـدِّدِ
قد طالَ تَسْهِيْدِي وطـالَ نـشيدُها ... ومَدَامِعِي كالطلِّ في الغُصْن النَّدِي
فـإلى متَـى صَـمْتِي كـأنِّي زهـرةٌ ... خَرْسَـاءُ لمْ تُـرْزَقْ بَراعَـةُ مُنْـشِدِ

❧❧❧

قَيْثَـارَتي مُلِئَـتْ بأَنَّـات الجَـوى ... لا بُـدَّ للمَكْبُـوْتِ مِـنْ فَيَـضَانِ
صَعدَتْ إلى شَفَتي بلابلُ مُهْجَتِي ... لِيَبِـيْنَ عنهـا مَنطقـي ولِـسَاني
أنـا مـا تَعَـدَّيْتُ القناعـةَ والرِّضـا ... لكـنَّما هـي قـصةُ الأَشْـجَانِ
أَشْـكُوْ وفي فَمـي الـتُّرَابُ وإنَّـما ... أَشْـكُوْ مُـصابَ الـدِّين للـدَّيَّانِ
يَشْكُوْ لـكَ اللهـمَّ قلـبٌ لمْ يَعِـشْ ... إلَّا لحمـدِ عُـلاكَ في الأَكْـوَانِ

❧❧❧

قد كانَ هذا الكـونُ بـل وُجودِنـا ... رَوْضًـا وأزهـارًا بغـير شَـمِيْم
والوردُ في الأَكْـمَام مجهـولُ الـشَّذَا ... لا يُرْتَجَـى وردٌ بغـير نَـسِيم
بَـلْ كَانَـتِ الأَيَّـامُ قبـل وجودِنـا ... لَـيْلًا لظالِمِهـا وللمَظْلُـوم

لَمَّا أطلَّ مُحَمَّدٌ زَكَتِ الرُّبى ... واخضَرَّ في البُسْتَانِ كلُّ هَشِيْم
وأَذَاعَتِ الفِرْدَوسُ مَكْنُونَ الشَّذا ... فإذا الورى في نُضْرةٍ ونَعِيم

مَنْ كان يَهتِفُ باسم ذاتِكَ قَبْلَنَا ... مَنْ كان يَدْعو الواحدَ القهَّارا
عَبَدُوا تَمَاثِيلَ الصُّخورِ وقدَّسُوا ... منْ دُونِكَ الأَحْجارَ والأشجارا
عَبَدُوا الكَوَاكبَ والنُّجومَ جَهَالَةً ... لَمْ يَبْلُغُوا مِنْ هَدْيِهَا أَنْوَارا
هَلْ أَعْلَنَ التَّوْحِيْدَ داع قَبْلَنَا ... وهَدَى الشُّعُوبَ إليكَ والأَنظارا
كُنَّا نُقَدِّمُ لِلسُّيُوفِ صُدُورَنا ... لَمْ نَخْشَ يَوْمًا غَاشِمًا جبَّارا

قَدْ كَانَ في اليُوْنَانِ فَلْسفَةٌ وفي الـ ... ـرُّومَانِ مَدْرَسَةٌ وكانَ المُلْكُ في سَاسَانِ
لَمْ تُغْنِ عَنْهُم قُوَّةٌ أو ثَرْوَةٌ ... في المالِ أو في العِلْمِ والعِرْفانِ
وبكُلِّ أرض سامِرِيٌّ مَاكِرٌ ... يَكْفِي اليهودَ مَؤُوْنَةَ الشَّيطانِ
والحِكْمَةُ الأُولى جَرَتْ وثنيَّةً ... في الصِّين أو في الهِنْدِ أو طُوْرانِ
نَحْنُ الذِيْنَ بنُورِ وَحْيِكَ أَوْضَحُوا ... نَهْجَ الهُدى ومَعَالِمَ الإيمَانِ

منْ ذا الذي رفعَ السُّيوفَ ليرفعَ ... ـمَكَ فَوقَ هاماتِ النُّجومِ مَنارَا

---

(١) في الأصل هكذا، وفيه اضطراب، ويمكن أن يستقيم الوزن على حساب المعنى فيكون:

قد كان في «اليونان» و«الرومان» مَدْ ... رَسَةٌ، وكان المُلْكُ في ساسان

كنَّا جبالًا في الجِبَالِ ورُبَّما ... سِرْنا على مَوْجِ البحارِ بحارَا
بِمَعابِدِ الإفْرَنْج كانَ أَذَانُنَا ... قبلَ الكَتائِبِ يفتحُ الأَمْصَارَا
لمْ تَنْسَ إفريْقِيَّة ولا صَحْراؤُها ... سَجَدَاتِنا والأرْضُ تَقْذِفُ نارَا
وكانَّ ظِلَّ السَّيْفِ ظِلُّ حديقةٍ ... خَضْراءَ تُنْبِتُ حوْلنا الأزْهَارا

لمْ نخشَ طاغوتًا يحارِبُنا ولو ... نَصَبَ المنايا حَوْلنا أسْوارَا
نَدْعُو جِهارًا لا إله سِوى الَّذي ... صنعَ الوجودَ وقدَّر الأقدارَا
ورؤوسُنا يا ربِّ فوقَ أكفِّنا ... نَرْجُو ثوابَك مَغْنَمًا وجِوارَا
كُنَّا نرى الأصنامَ منْ ذهبٍ ... فَنَهْدِمُهَا ونَهْدِمُ فَوْقَها الكفَّارَا
لو كانَ غير المُسْلمينَ لَحَازَهَا ... كنْزًا وصاغَ الحِلْيَ والدِّيْنَارَا

كم زُلْزِلَ الصَّخْرُ الأشمُّ فما وهَى ... منْ بأسِنا عَزمٌ ولا إيْمَانُ
لو أنَّ آسادَ العَرِيْن تفزَّعتْ ... لمْ يَلْقَ غير ثَباتِنا الميدانُ
وكأنَّ نيران المدافع في صُدُوْ ... رِ المؤمنينَ الرَّوحُ والرَّيحانُ
توحيدُك الأعلى جَعَلْنَا نَقْشَه ... نُورًا يُضيءُ بصُبْحِهِ الأزمانُ
فغدت صدورُ المؤمنينَ مَصَاحِفًا ... في الكونِ مسطورًا بها القرآنُ

منْ غيرنا هَدمَ التماثيلَ الَّتي ... كانتْ تُقدِّسُها جَهَالاتُ الورى؟
حتَّى هَوَتْ صُوَرُ المعابدِ سُجَّدًا ... لجلالِ مَنْ خَلقَ الوجودَ وصوَّرَا

ومَـن الأُلى حَملُـوا بعـزم أكُفِّهـمْ ... بابَ المدينـةِ يـومَ غـزوَةِ خَيْـبَرَا [١]
أمَّـنْ رَمـى المَجُـوس فأطفِئـتْ ... وأَبانَ وجْـهَ الحـقِّ أبْلَـجَ نـيِّرا [٢]؟
ومن الـذي بـذلَ الحيـاةَ رخيـصةً ... ورأى رِضَاكَ أعـزَّ شيءٍ فاشْـتَرَى

نحـنُ الَّـذين استيقظتْ بـأذانهم ... دُنيا الخليقـةِ مِـنْ تهاويـل الكَـرى
نحـنُ الَّـذين إذا دُعـوا لـصلاتهم ... والحربُ تسقي الأرض جامًا أَحْمَرا
جعلوا الوجوهَ إلى الحجاز وكبَّروا ... في مـسمع الـرُّوح الأَمـينِ فكـبَّرا
محمودُ مثـل إيـاز [٣] قـام كلاهمـا ... لـكَ بالخُـشُوع مطلِّيـا مُـسْتَغْفِرا
والعبـدُ والمَـوْلى عـلى قَـدَم التُّقـى ... سجدا لوجهِكَ خاشعينَ على الثَّرى

بَلَغـتْ نهايـةَ كـلِّ أرض خَيْلُنـا ... وكـأنَّ أبْحُرَهـا رمـالُ البَيْـدِ
في محفـل الأكـوانِ كـان هلالُنـا ... بالنَّصر أوضـحَ مـنْ هـلال العِيْـدِ
في كـلِّ موقعـةٍ رفعنـا رايـةً ... للمجـدِ تُعلـنُ آيـة التَّوحيـدِ
أُمَـمُ البرايـا لم تكـن مـن قبلنـا ... إلا عبيـدًا في إسـارِ عبيـدِ
بلغـت بنـا الأجيـالُ حرِّيَّاتهـا ... مـن بعـد أصـفادٍ وذلِّ قيـودِ

---

(١) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) هو السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي.
(٣) إياز: هو مولى السلطان محمود السبكتكين.

رُحْماكَ ربِّ هل بغير جِبَاهِنا ... عُرِف السُّجودُ ببيتكَ المَعْمُورِ
كانت شِغافُ قُلوبنا لكَ مُصْحفًا ... يحوي جلالَ كتابكَ المَسْطورِ
إنْ لمْ يكنْ هذا وفاءً صادقًا ... فالخلقُ في الدُّنيا بغير شُعورِ
ملأ الشعوبَ جُنَاتُها وعُصاتُها ... مِنْ مُلْحِدٍ عاتٍ ومِنْ مَغْرورِ
فإذا السَّحَابُ جرى سَقاهُم غَيْثَه ... واختصَّنا بصواعِقَ التَّدْمِيْرِ

قد هبَّتِ الأصنامُ منْ بعد البلى ... واستيقظت من قبل نفخ الصُّورِ
والكعبة العليا توارى أهلُها ... فكأنَّهم مَوْتى لغير نُشورِ
وقوافلُ الصَّحراءِ ضلَّ حُدَاتُها ... وغدتْ منازِلُها ظِلالَ قُبُورِ
أنا ما حسَدْتُ الكافِرِينَ وقدْ غَدَوْا ... في أنعُمٍ ومواكِبٍ وقُصورِ
بلْ محِنتي أَلَّا أرى في أُمَّتي ... عملًا تقدِّمه صَداقَ الحُوْرِ[1]

لكَ البريَّةُ حكمةً ومشيئةً ... أَعْيَتْ مَذَاهِبُها أُولي الألْبابِ
إنْ شئْتَ أجريتَ الصَّحارى أنهُرًا ... أو شئْتَ فالأنهارُ موْجُ سرابِ
فإذا دُهي الإسلامُ في أبنائه ... حتَّى انطوَوْا في محنةٍ وعذابِ
فثراؤُهُم فقرٌ ودولةُ مجدهم ... في الأرض نهْبُ ثعالبٍ وذئابِ
عاقَبْتَنا عدلًا فهبْ لعدوِّنا ... عن ذنبه في الدَّهر يوم عقابِ

(١) الصداق: المهر.

عاشُوا بثَرْوتِنا وعشْنا دُونَهم ... للموت بين الذُّلِّ والإملاقِ
الدِّين يَحْيا في سعادةِ أهله ... والكأسُ لا تبقى بغير السَّاقي
أين الذين بنار حبِّك أرْسَلُوا الـ ... أنوارَ بين محافل العشَّاقِ
سكَبُوا اللَّيالِيَ في أنينِ دُموعهم ... وتوضَّؤُوا بمدامع الأشواق
والشمسُ كانت من ضياءِ وُجُوههمْ ... تُهْدِي الصَّباحَ طلائعَ الإشراقِ

كيفَ انطوتْ أيامُهم وهمُ الأُلى ... نشرُوا الهُدى وعَلَوْا مكانَ الفَرْقَدِ [1]
هجروا الدِّيارَ فأين أزمعَ [2] ركبُهُمْ ... منْ يهتدي للقوم أو منْ يَقْتدي
يا قلبُ حسبُك لمْ تُلمَّ [3] بطيفِهِمْ ... إلَّا على مصباح وَجْهِ مُحَمَّدِ
فازُوا من الدُّنيا بمجدٍ خالدٍ ... ولهم خلودُ الفوزِ يوم الموعِدِ
يا ربِّ ألْهِمْنا الرَّشادَ فما لنا ... في الكَوْن غيركَ منْ وليَّ مُرْشِدِ

ما زالَ قَيْسٌ والغرامُ كعهدِهِ ... وربوعُ ليلى في ربيع جمالِها
وهِضابُ نجدٍ من مَراعيها المَها ... وظباؤُها الخفراتِ ملءُ جبالِها
والعشقُ فيَّاضٌ وأُمَّةُ أحمدٍ ... يتَحَفَّزُ التاريخُ لاستقبالِها
لو حاولتْ فوق السَّماء مكانةً ... رفَّتْ على شمسِ الضُّحى بهلالِها

---

(١) الفَرْقَد: وهو نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريبًا، ولذا يُهتدي به، وهو المسمَّى «النجم القطبي».
(٢) أَزْمَعَ: قَصَدَ وتوجَّه.
(٣) لمْ تُلِمَّ: لم تنزل بهم.

ما بالُها تَلْقَى الجدودَ عواثرًا [١] وتصُدُّهَا الأيَّامُ عن آمالِها

هَجْرُ الحبيبِ رمَى الأحبةَ بالنَّوى وأصابهُمْ بتَصَرُّم الآمَالِ

لو قد مللنا العِشْق كانَ سبيلنا أو نستكين إلى هوى وضلال

أو نصنعَ الأصنام ثمَّ نبيعها حاشا الموحِّد أن يذلَّ لمال

أيامُ سلمانَ بنا موصولةٌ وتُقى أُويس في أذانِ بلال

يا طِيْبَ عَهْدٍ كنتَ فيه مَنارَنا فبعثْتَ نور الحقِّ مِنْ فَارانِ

وأسرْتَ فيه العاشقين بلَمْحَةٍ وسقيتهم راحًا بغير دِنَانِ

أحرقْتَ فيه قلوبَهم بتوقُّدِ الإيمان لا بتَلَهُّب النِّيرانِ

لم نبقَ نحنُ ولا القُلُوبُ كأنَّها لم تَحْظَ مِنْ نارِ الهوى بدُخَانِ

إنْ لمْ يُنَرْ وجهُ الحبيب بوصلِهِ فمكانُ حُزْنِ القلب كلُّ مكانِ

يا فرحة الأيام حين نرى بها روض التَّجلِّي وارفَ الأغصان

ويعود محفلُنا بحسنك مسفرًا كالصُّبح في إشراقه الفينان

قد هاجَ حزني أنْ أرى أعداءنا بين الطِّلا [٢] والظِّلِّ والألحان

ونعالجُ الأنفاس نحن ونصطلي في الفقرِ حينَ القومُ في بستان

---

(١) الجُدود العَواثِر: الحظوظ الخائبة.

(٢) الطِّلا: الخمر.

أشْرِقْ بنـورِك وابعـثِ الـبرق القـديمَ بومـضةٍ لِفَرَاشـكَ الظَّمْـآنِ

أشـواقُنا نحـوَ الحجـازِ تطلَّعـت كحنـينِ مُغْـترب إلى الأوطـان
إنَّ الطيورَ وإنْ قَصَصْتَ جناحها تـسمو بفطرتهـا إلى الطَّـيران
قيثـارتي مكبوتـةٌ ونـشيدُها قد مـلَّ مـن صـمتٍ ومـنْ كـتمان
واللَّحنُ في الأوتـار يرجُـو عازفًـا ليبـوحَ مـن أسراره بمعـانِ
والطُّور [1] يرتقبُ التجلِّي صارخًا بهـوى المَـشُوْقِ ولَـهْفَةِ الحَـيْرانِ

أكبادُنـا احترقـتْ بأنَّـات الجَـوى ودماؤُنـا نهـرُ الـدُّمُوع القـاني
والعطرُ فاض من الخمائـل والرُّبـا وكأنَّـه شـكوى بغـير لـسان
أو ليس منْ هَوْلِ القيامـة أن يكـو ن الزَّهـرُ تَمَّامًـا [2] عـلى البُـستانِ
النَّمـلُ لا يخـشى سـليمانًا إذا حَرَسَـتْ قُـراه عنايـةُ الـرَّحمن
أرشدْ براهِمَةَ الهُنـودِ ليرفعـوا الـ إسـلامَ فـوقَ هياكـل الأوْثـانِ

ما بالُ أغصان الصَّنوبر قـد نـأت عنهـا قَمَارِيْهَـا [3] بكـلِّ مكـانِ
وتعرَّتِ الأشجارُ من حُلـل الرُّبـا وطيورهـا فـرَّت إلى الوديـانِ

---

(١) الطُّوْر: هو الجبل الذي تجلَّىٰ اللهُ عليه لموسىٰ عليه الصلاة والسلام وكلَّمه.
(٢) نمَّامًا: هو مَن يُزيِّن للناس الكلام بالكذب.
(٣) القماريُّ: هو ضرب من الحمام مطوَّق حسن الصوت.

يـــا ربِّ إلَّا بُلْـــبُلًا لم ينتظِـــرْ وحيَ الرَّبيـع ولا صَبَا [1] نيْسانِ
ألحانُـــه بحـــرٌ جـــرى مـــتلاطِمًا فكأنَّـــه الحـــاكي عـــن الطُّوفـــانِ
يا ليـت قـومي يـسمعون شـكاية هي في ضميري صرخـةُ الوِجـدانِ

جواب الشكوى

□ ثم نظَم محمد إقبال بعد هذه القصيدةِ قصيدةً أخرى، وضَّح فيها تقصير المسلمين، وإهمالهم لدينهم، وعدم إتقانهم أمر دنياهم، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

كـلام الـرُّوح لـلأرواح يَـسْري وتدركـه القلـوب بـلا عنـاءِ
هتفـتُ بـه فطـارَ بـلا جنـاح وشـقَّ أنينُـه صـدرَ الفـضاءِ
ومعدنُـــه تُـــرابيٌّ ولكِـــنْ جَـرَتْ في لفظِـهِ لغـةُ الـسماءِ
لقـد فاضـت دمـوع العِـشق فيـه حـديثًا كـانَ عُلْـويَّ النـداءِ
فَحَلَّـقَ في ربـا الأفـلاكِ حتَّـى أهـاجَ العـالم الأعْـلَى بُكـائِي

تحـاوَرَتِ النُّجـومُ وقُلْـن صـوتٌ بقـرب العـرش موصـول الـدُّعاءِ
وجاوبـت المجـرَّة عـلَّ طيفًـا سَرَى بـين الكواكـبِ في خَفَـاءِ
وقـال البـدرُ هـذا قلـبُ شـاكٍ يُواصـل شـدْوهُ عنـد المـساءِ
ولم يعرفْ سوى رضـوان صـوتي ومـا أحـراه عنـدي بالوفـاء
ألَمْ أكُ قبـلُ في جنّـاتِ عَـدْنٍ فـأخرجني إلى حـينِ قـضائي

(١) صَبَا: ريح طيِّبة تهبُّ من جهة المشرق.

وقيل هو ابن آدم في غُرُورِ ... تجاوزَ قدْرَه دونَ ارْعِواءِ[١]
لقد سَجَدَتْ ملائكةٌ كرامٌ ... لهذا الخلق من طينٍ وماءِ
يُظَنُّ العِلْمُ في كيفَ وكَمْ ... وسرُّ العَجْز عنه في انطواءِ
وملءُ كُؤوسِهِ دمعٌ وشكوى ... وفي أنغامِهِ صوتُ الرَّجاءِ
فيا هذا لقدْ أبلغتَ شيئًا ... وإن أكثرتَ فيه مِنَ المِراءِ

عَطايانا سحائبُ مُرْسَلاتٍ ... ولكنْ ما وجدنا السَّائلينا
وكلُّ طريقنا نَوْرٌ[٢] ونورٌ ... ولكن ما رأينا السَّالكينا
ولم نجدِ الجواهرَ قابلاتٍ ... ضياءَ الوحي والنُّور المبينا
وكان تراب آدم غيرَ هذا ... وإنْ يكُ أصله ماءً وطينا
ولو صدقوا وما في الأرض نهرٌ ... لأجرينا السَّماء لهم عُيونا

وأخضعنا لِمُلْكِهِم الثُّريَّا ... وشيَّدنا النُّجوم لهم حُصونا
ولكنْ أَلْحَدُوا في خيرِ دين ... بنى في الشَّمس مُلْكَ الأوَّلينا
تُراثُ محمَّدٍ قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مُهْمَلِينا
تولَّى هادمُو الأصنام قُدْمًا ... فعاد لها أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيمَ لكن ... أرى أمثال آزَرَ[٣] في البنينا

---

(١) ارعواء: كف وارتداع.
(٢) النَّور: الزهر.
(٣) آزر: اسم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنام حِرْفةً.

وفي أَسْـلافِكم كانـتْ مزايـا ... بكـلِّ فـم لـذِكراها نَـشِيْدُ
تضُوعُ[١] شقائقُ الصَّحراءِ عِطْرًا ... بريَّاهـا وتبتـسمُ الـورودُ
فهـلْ بقيـتْم محاسـنُهم لـديكم ... فيجمـل في دلالِكـم الـصُّدودُ
لقـد هـاموا بخـالقهم فنـاءً ... فلـم يكتـب لغـيرهِمُ الخلـودُ
وكـوثرُ أحمـد مـنكم قريـبٌ ... ولكـنْ شـوقكم عنـه بعيـدُ

وكمْ لاح الصَّباحُ سَنًا[٢] وبُشْرى ... وأذَّنـتِ القَـماري والطُيـورُ
وكـبَّرت الخمائـل في رباهـا ... مطلِّيـةً فجاوبهـا الغـديرُ
ونـوم صـباحكم أبـدًا ثقيـلٌ ... كـأنَّ الـصبح لم يدركـه نـورُ
وأضحى الصَّوم في رمضان قيدًا ... فلـيس لكـم بـه عـزمٌ صـبورُ
تمـدَّن عـصرُكم جمـع المزايـا ... ولـيس بغائـبٍ إلا الـضمير

لقـد ذهـب الوفـاءُ فـلا وفـاءً ... وكيـف ينـالُ عهـدي الظَّالمينـا
إذا الإيـمانُ ضـاعَ فـلا أمـانٌ ... ولا دُنْيـا لمـن لم يُحْـي دِينـا
ومَـنْ رَضِيَ الحيـاةَ بغـير ديـن ... فقـدْ جعـلَ الفنـاء لهـا قَرينـا

حِرْفةً.

(١) تَضُوعُ: تفرح وتنتشر.

(٢) السَّنا: الضياء.

وفي التوحيـــد للْهِمَـــم اتِّحـــادٌ ولـــنْ تبنـــوا العُـــلا مُتفرِّقينـــا
تـــساندتِ الكواكـــبُ فاســـتقرَّتْ ولـــولا الجاذبيَّـــةُ مـــا بقِينـــا

غَـــدَوْتُمْ في الـــدِّيار بـــلا ديـــارِ وأنـــتم كـــالطُّيورِ بـــلا وكُـــورِ
وكـــلُّ صـــواعق الـــدُّنيا ســـهامٌ لبيـــدَرِكم وأنـــتم في غـــرورِ
أهـــذا الفقـــر في علـــم ومـــالٍ وأنـــتم في القطيعـــةِ والنُّفـــورِ
وبيـــعُ مقـــابرِ الأجـــدادِ أضـــحى لـــدى الأحفـــادِ مـــدعاةُ الظُّهـــورِ
سَيُعْجَبُ تـــاجرو الأصـــنام قُـــدْمًا إذا ســـمعوا بتجَّـــار القبـــورِ

مِـــن المتقـــدِّمين إلى المعـــالي عـــلى نهـــج الهدايـــة والـــصَّواب
ومِـــن جبهـــاتهم أنـــوارُ بيتـــي وفي أخلاقهـــم يُـــتلى كتـــاب
أمـــا كـــانوا جُـــدُودكم الأوالي بنـــاةَ المَجْـــد والفـــنِّ العجـــاب
ولـــيس لكـــم مـــن المـــاضي تـــراثٌ سوى شَكْوَى اللُّغوب[1] والاكتئاب
ومـــن يَـــكُ يومـــهُ في العـــيش يأسًـــا فـــما غَـــدُهُ ســـوى يـــوم العـــذاب

أتـــشكُو أنْ تـــرى الأقـــوامَ فَـــازُوا بمجـــدٍ لا يـــراه النَّائمونـــا
مَـــشَوْا بهـــدي أوائِلِكـــم وجـــدُّوا وضـــيَّعتم تـــراث الأوَّلينـــا
أيُحْـــرمُ عامـــلٌ وردَ المعـــالي ويـــسعدُ بـــالرُّقيِّ الخامِلُونـــا

---

(١) اللُّغوب: التعب والإعياء.

أليسَ من العدالة أنَّ أرْضِي ... يكون حصادُها للزَّارعينا
تَجَلِّي النُّور فوق الطُّور باقٍ ... فهل بقيَ الكليمُ[1] بطُورِ سِينا؟

أَلَمْ يُبْعَثْ لأُمَّتكم نبيٌّ ... يوحِّدكم على نهج الوئام
ومصحفُكم وقبلتُكم جميعًا ... منارٌ للأخوة والسَّلام
وفوق الكل رحمنٌ رحيمٌ ... إلهٌ واحدٌ ربُّ الأنام
فما نارُ ألفتكم تولَّى ... وأمسيتُم حيارى في الظَّلام
وحسن اللُّؤْلُؤ المكنونِ رهنٌ ... صوغ العِقْد في حُسْن النِّظام

وكيف تغيَّرتْ بكمُ اللَّيالي ... وكيف تفرَّقت بكمُ الأماني
تركتم دينَ أحمدَ ثم عُدْتُم ... ضحايا لِلْهوى أو للهوان
رقيُّ الشَّعب قد أضحى لديكم ... تقرِّوُه صلاحيةُ الزمانِ
وكيف تُقاسُ أوهامٌ ولغوٌ ... بحكمة منزلِ السَّبع المثاني
أرى نارًا قد انقلبت رمادًا ... سوى ظل مريض من دخانِ

أَرى الفقراءَ عبَّادًا تقاةً ... قيامًا في المساجد راكعينا
هم الأبرارُ في صوم وفطرٍ ... وبالأسحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونا
وليس لكم سوى الفقراء سترٌ ... يواري عن عيوبكم العُيُونا

---

(١) الكليم: لقب سيدنا موسىٰ عليه والصلاة والسلام.

أضـــلَّت أغنيـــاءكم الملاهـــي ... فهـــم في ريـــبهم يتردَّدونـــا
وأهـــلُ الفقـــر مـــا زالـــوا كنـــوزًا ... لـــــدينِ الله ربِّ العالمينـــــا

أرى التفكـــيرَ أدركـــهُ خمـــولٌ ... ولم تبـــقَ العـــزائمُ في اشـــتعال
وأصبحَ وَعْظُكم مـن غـير سِحْرٍ ... ولا نـــورٌ يُطِـــلُّ مـــن المقـــال
وعنـــد النَّـــاس فلـــسفةٌ وفكـــرٌ ... ولكـــن أيـــن تلقـــين (الغـــزالي [1])
وجلجلَـــةُ الأذان بكـــلِّ أرض ... ولكـــن أيـــن صـــوتٌ مـــن بـــلالِ
منـــائرُكم علـــتْ في كـــلِّ حـــيٍّ ... ومـــسجدُكم مـــن العبَّـــاد خـــالي

فـــأَينَ أئمـــةٌ وجنـــودُ صـــدقٍ ... تهـــابُ شَـــبَاةَ [2] عـــزمهمُ الحـــرابُ
إذا صـــنعوا فـــصنعهمُ المعـــالي ... وإنْ قـــالوا فقـــولُهم الـــصَّوابُ
مـــرادُهم الإلـــهُ فـــلا ريـــاءٌ ... ونهجهـــمُ اليقـــين فـــلا ارتيـــابُ
لأمَّـــتهمْ وللأوطـــانِ عاشـــوا ... فلـــيس لهـــم إلى الـــدُّنيا طِـــلابُ
كمثل الكأس تُبْـصِرُها دِهاقًـا [3] ... ولـــيس لأجلهـــا صُـــنِع الـــشَّرابُ

جهـــادُ المـــؤمنين لهـــمْ حيـــاةٌ ... ألا إنَّ الحيـــاةَ هـــيَ الجهـــادُ

---

(١) الغزالي: هو أبو حامد محمد الغزالي، أحد أعلام المسلمين، لقب «بحجة الإسلام» صاحب مصنفات سائرة، توفي عام ٥٠٥هـ بمدينة «طوس».
(٢) شَبَاةَ، جمعها الشِّبَا والشبوات: شباة كل شيء، أي حدُّ طرفه.
(٣) دِهاق: مُمْتلئ، يقال: كأس دهاق، أي ممتلئ.

عقائـــدُهم ســـواعدُ ناطقـــاتٌ ... وبـــالأعمال يثبـــتُ الاعتقـــادُ
وخـــوفُ المـــوتِ للأحيـــاء قـــبرٌ ... وخـــــوفُ الله للأحـــــرار زادُ
أرى مـــيراثهم أضـــحى لـــديكم ... مضاعًا حيـثُ قـد ضـاعَ الرَّشـادُ
ولـــيس لـــوارثٍ في الخـــير حـــظٌّ ... إذا لم يحفـــــظِ الإرث اتِّحـــــادُ

لأيِّ مـــآثر القـــوم انْتَـــسَبْتُم؟ ... لتكتـــسبوا فخـــارَ المُـــسلمينا
فأين مقامُ ذي النُّورين[1] مـنكم ... ودولـــةُ عـــزِّه دُنيـــا ودِيْنَـــا
وفقـــرُ عـــليٍّ الأواب هـــلا ... ربحـــتم فيـــه كنـــزَ الفاتحينـــا
أقمـتمْ في الـذُّنوب وفي الخطايـا ... وتغتـــابون حتَّـــى الـــصَّالحينا
وهم ستروا عيوب الخلـق فـضلًا ... وإن كـــانوا أبـــرَّ المُتَّقينـــا

أريكةُ قيصَر[2] وسريرُ كِسرى[3] ... قـــد احْتَمَيـــا بملكهـــم العَمِـــيم
وأنـــتم تطمحـــون إلى الثُّريـــا ... بـــلا عـــزم ولا قلـــبٍ ســـليم
تـضيعون الإخـاء وهـم أقـاموا ... صروحَ إخـائهم فـوق النُّجـوم
طلبـتُمْ زهـرةَ الـدنيا وعـدْتُهم ... بـلا زهـرٍ يـضوعُ[4] ولا شـميم
وكـان لـديهم البـستان محـضًا ... وهـم أصـحاب جنـات النَّعـيم

---

(١) هو لقب الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.
(٢) قيصر: لقلب ملوك الروم.
(٣) كسرىٰ: لقب ملوك الفرس.
(٤) يَضُوع: يفوح وينتشر.

يُعيدُ الكونُ قصَّتهم حديثًا ... ويُنشئ منْ حديثهمُ الفنونا
فكمْ نَزَحُوا عنِ الأوكارِ شَوْقًا ... إلى التَّحْلِيقِ فَوْقَ العالمينا
ويأسُ شبابكم أدمى خطاهم ... فظنُّوا فيه بالدِّين الظُّنونا
هي المدنيَّةُ الحمقاءُ ألقتْ ... بهم حول المذاهب حائرينا
لقد صنعتْ لهم صنمَ الملاهي ... لتحجبَ عنهم الحَرَمَ الأمينا

لقد سئم الهوى في البِيْدِ قَيْسٌ [1] ... ومَلَّ من الشِّكاية والعذابِ
ويحاولُ أن يُباح العِشْقُ حتى ... يرى ليلاه [2] وهي بلا حجابِ
يريدُ سفور وجهِ الحُسن لمَّا ... رأى وجهَ الغرام بلا نقابِ
فهذا العهد أحرقَ كلَّ غرس ... من الماضي وأغلقَ كلَّ بابِ
لقد أفنت صواعقُه المغاني ... وعاثتْ [3] في الجبال وفي الهضابِ [4]

هي النَّارُ الجديدة ليس يُلقى ... لها حطبٌ سوى المَجْدِ القديم
خُذوا إيمانَ إبراهيمَ تَنْبُتْ ... لكمْ في النَّار روضاتُ النَّعيم
ويذكو من دم الشهداء وردٌ ... سَنِيُّ العطر قدسيُّ النَّسيم

---

(١) قيس: من أشهر عشاق العرب.
(٢) ليلى: من أشهر عاشقات العرب.
(٣) عَاثَتْ: أفسدتْ.
(٤) هَضاب: جمع هَضْبة، وهو جبل منبسط ممتد على وجه الأرض.

ويلمعُ في سماء الكون لونٌ ... من العُنَّاب مخضوبُ الأديم
فلا تفزعْ إذا المَرْجَانُ[١] أضحى ... عقودًا للبراعم والكُروم

فكَمْ زالتْ رياضٌ منرباها ... وكم بادتْ نخيلٌ من في البوادي
ولكنْ نخلةُ الإسلام تنمو ... على مرِّ العواصف والعوادي
ومجدُك في حِمَى الإسلام باقٍ ... بقاءَ الشَّمس والسَّبع الشِّدادِ
وإنَّك يوسفُ في أيِّ مصرٍ ... يرى كنعانَه[٢] كلَّ البلادِ
تسير بك القوافلُ مُسرعاتٍ ... بلا جرس ولا ترجيع حَادِي

ضياؤك مشرقٌ في كلِّ أرض ... لأنكَّ غير محدودِ المكانِ
بَغَتْ أممُ التَّتار[٣] فأدركتْها ... من الإيمان عاقبةُ الأمانِ
وأصبح عابدو الأصنام قُدْمًا ... حماةَ الحِجْر[٤] والرُّكن اليماني[٥]
فلا تجزع فهذا العصر ليل ... وأنت النَّجم يشرق كلَّ آنِ
ولا تخشَ العواصفَ فيه وانهضْ ... بشُعلتك المضيئةِ في الزَّمانِ

---

(١) المَرْجَان: صغار اللؤلؤ.
(٢) كنعان: أرض فلسطين.
(٣) التَّتار: قبائل كانت تسكن في أواسط آسيا، أصلهم من المغول، اشتهروا بغزواتهم، وأسلم كثير منهم بعد هجومهم على بغداد.
(٤) الحجْر: يريد به الشاعر حجْر الكعبة.
(٥) الركن اليَمَاني: هو ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود.

أعـدْ مـن مـشرقِ التَّوحيـد نـورًا ... يـــتمُّ بـــه اتِّحـــاد العالمينـــا
وأنـــت العطـــرُ في روض المعـــالي ... فكيـــفَ تعـــيش محتبـــسًا دفينـــا
وأنـــت نـــسيمهُ فاحمـــلْ شـــذاه ... ولا تحمـــلْ غبـــارَ الخاملينـــا
وأرســـل شـــعلةَ الإيـــمان شمـــسًا ... وصُـــغْ مِـــنْ ذرةٍ جـــبلًا حـــصينا
وكـــن في قمَّـــةِ الطُّوفـــان موجًـــا ... ومُزنًـــا يمطـــر الغيـــث الهَتُونـــا

فباســـم محمـــدٍ شـــمسِ البرايـــا ... أقيمـــت خيمـــةُ الفلـــك المُنـــيرِ
تَلألأَ في الريـاض وفي الـصحارى ... وفـــوقَ المـــوج والـــسيل المغـــيرِ
ونَـــبْض الكـــونِ منـــه مُـــسْتَمِدٌّ ... حرارتَـــه عـــلى مـــرِّ العـــصورِ
ومـــن مـــراكش [1] يغـــزو صـــداه ... رُبُـــوعَ الـــصِّين بالـــصَّوت الجهـــيرِ
ومـــا مـــشكاةُ هـــذا النُّـــور إلا ... ضـــميرُ المـــسلم الحـــرِّ الغَيُـــورِ

ورفـــعُ الـــذِّكر للمختـــار رفـــعٌ ... لقـــدرك نحـــو غايـــاتِ الكـــمالِ
فكن إنسانَ عـيْنِ الكـون واشْـهد ... مقامـــك عاليًـــا فـــوقَ المعـــالي
بخنجرِ عزمك الوثَّاب لاحت ... عـــلى الأعـــلام أنـــوارُ الهـــلالِ
نـــداؤك في العنـــاصر مـــستجابٌ ... إذا دوَّى بـــصوتٍ مـــن بـــلالِ
وعقلُـــك في الخطـــوب أجـــلُّ درع ... وعـــشقُك خـــير ســـيفٍ للنِّـــضالِ

---

(١) مراكش: مدينة تقع في المغرب الأقصى.

خلافةُ هذه الأرضِ استقرَّت ... بمجدك وهو للدنيا سماءُ
وفي تكبيرها القدسيِّ يبدو ... صغيرًا كلُّ ما ضمَّ الفضاءُ
فيا منْ هبَّ للإسلام يدعو ... وأيقظ صدقَ غيرته الوفاءُ
سترفعُ قَدْرَك الأقدارُ حتى ... تشاهد أنَّ ساعدك القضاءُ
وقيل لكَ احْتَكِمْ دنيا وأخرى ... وشأنُك والخلودَ كما تشاءُ [1]

□ولله در القائل:

أيها الساقي! من النور اسقني ... وآسِ في قلبي جِراح الزَّمَن
شعلةُ الماء التي من زمزم ... قيصرٌ يعنو لها كالخدم
مُقلةُ المُبصر منها أبصرُ ... وشِعابُ الفِكر منها أنور
تجعلُ الريشةَ طودًا قاهرا ... وتُري الثعلب ليثًا زائرا
هيَ تسمو للثُريَّا بالثَّرى ... وتعي القطرةُ منها أبحرا
املأ الكأس بصفوٍ ونيِّرٍ ... نوِّرِ الفكرَ بنورِ القمرِ [2]

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٩٣- ١١٠).
(٢) «ديوان إقبال» (١/ ١٢٩).

حياة الذات بعلو همتها بتخليق المقاصدِ وتوليدها:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنَّما يُبقي الحياة المقصدُ ... جَرَسٌ في ركبها ما تَقصد[1]

سِرُّ عيش في طِلابٍ مُضمَر ... أصلُه في أمل مستترُ

أُحي في قلبكَ هذا الأملا ... لا يَحُلُ طينُك قبرًا مُهمَلا

يخفِقُ القلب به بين الصدورْ ... هو في صدرك مرآة تُنير

يهبُ الترب جَناحًا يَصعَد ... ولموسى العقل خَضْرًا يُرْشِد[2]

إنما يحيا الفؤادُ الآملُ ... وإذا حيَّ يموت الباطلُ

فإذا عيّ بتخليق المُنَى ... هِيضَ سِقطاه وأودَى وَهَنا

أملُ الذاتِ لهيبٌ يَستعِرْ ... أو هو الموج الذي لا يستقِرْ

وهَقُ المقصودِ حَبْل الأمل ... إنَّه خَيْط كتاب العمل[3]

ومماتُ الحيِّ فقدان الرجاءْ ... يُطْفِئُ الشعلةَ فِقدانُ الهواء[4]

---

(١) المقصد مثل جرس القافلة ينبهها للسير.

(٢) هو من العقل كالخَضِر من موسىٰ يهديه ويبين له الحقائق. في بيان: أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها.

(٣) الوهق: حبل فيه أنشوطة تمسك به الخيل المسيبة، ويصاد به. وخيط الكتاب: الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلى بعض.

(٤) «ديوان إقبال» (١/ ١٣٦).

□ وعن دناءَة الهمم يقول:

جـوهرُ الآسـادِ أضـحى خزَفَـا ... حـين صـار القـوتُ هـذا العلَفـا
ذلـكَ القلـبُ عـن الـصَّدر نـأى ... جـوهر المـرأة فيهـا صَـدِئا
فـذوى في القلـب شـوق العَمـل ... وهُيـامُ الـسَّعي خَلْـف الأمـل
ذهـب الإقـدامُ والعـزمُ الأليـلْ ... والـسَّنا والعـزُّ والمجـدُ الأثيـلْ
بُـرثن الفـولاذِ فيهـا قـد وَهَـنْ ... واستكان القلـب في قـبرِ البـدن
ونـما الخـوفُ بـنقص المنَّـة ... قَطَـع الخـوفُ جـذور الهمَّـة
كـلُّ داءٍ في سـقوط الهمـم ... يجعـل الأحيـاء مثـل الـرِّمَم
نامـت الأسـد بـسحر الغـنم ... سـمَّتِ العجـزَ ارتقـاءَ الأُمـم [1]

وقال في الخَور والعجز:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

يحـسَب العجـزَ قُنوعًـا خـانِعُ ... لـصروف الـدهر ذلٌّ طـائِعُ
قـاطعٌ سُـبلَ الحيـاة الخَـوَرُ ... قَلْبُـه خَوفًـا وكِـذْبًا يُـضْمرُ
قَلْبُـهُ مـنْ كـلِّ خـيرٍ فـارغُ ... ليثـه في كـلِّ خبـثٍ والـغُ
في كمـينٍ راصـدٌ هـذا اللئـيمْ ... فاحذرنْ يا صاحبَ العقل السليمْ
احـذرنْ يـا صـاحِ مـنْ تزيينـه ... إنَّـه الحِربـاء في تلوينـه
إنَّـه يخفـى عـلى أهـل النظـر ... لَـبَسَ الحـقّ عليهم واستتر

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ١٤٦ - ١٤٧).

في ثيـاب اللـين حينًـا يظهـرُ ... وهـو حينًـا في اتـضاعٍ يُـستَر
وهـو طَـورًا في ثيـابِ المُجـبَرِ ... وهـو طـورًا في حجـابِ القَـدَر
وهـو حـينً في لبـاس الـتَّرف ... يُلبسُ الـصِّحةَ ثـوبَ الـدَّنَف [1]

وعالي الهمّة:

□ يقول عنه إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

في رمـاد اليـوم منَّـا ترقُـدُ ... شُـعلةٌ يرمـي بهـا الكـونَ الغـدُ
روضـةٌ تُـضمرها أكمامُنـا ... ضاءَ مـن صـبح غـدٍ أبـصارُنا [2]
أنـت يـا فـارسَ طِـرف الـزَّمن! ... أنـت يـا نـورًا لعـين الممكـنِ
موكـبَ الإنـشاءِ هيَّـا زيِّـنِ ... وتمكـنْ في سـواد الأعْـيُنِ
قُـمْ فسكِّن مـن ضَـجيج الأمـم ... وامـلأ الآذان زهـرَ الـنَّغَم
جـدِّدَنْ في النـاس قـانون الإخـاء ... وأدِرهـا كـأسَ حـبٍّ وصـفاءْ
أبلـغ النـاس رسـالاتِ الـسَّلامْ ... وأعـدْ في الأرض أيـام الوئـام
مـنْ بنـي الإنـسان أنـت الأمـلُ ... أنـت مـنْ ركـب الحيـاة المنـزلُ
أذْبلَـتْ كـفُّ الخريـف الـشجرا ... فاغـدُ في الـروض ربيعًـا نـضِرا
نحن مـن فيـضك نـسمو للقُلَـلْ ... في جهاد الكون نمضي كالشُّعل [3]
أيُّهـا الغافـلُ عـمَّا حُمِّـلا ... أنـت في الكـونين أعـلى منـزلا

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٨- ١٥٩).
(٢) الأكمام جمع كم:الزهرة قبل أن تنفتح، يقول: إن الكم عندنا سينفتح عن روضة، وعيوننا تُضيء بنور المستقبل.
(٣) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٧- ١٥٩).

افـــتحنْ عينـــا وأُذنًـــا وفـــما ... تُبْـصرِ الحـقَّ طريقًـا مُعلَـما [١]

قوة الذات وعلو الهمة:

قـــوةَ الـــذَّات احفظنهـــا أبـــدا ... وكـنِ الألمـاس لا تقطـر النـدى

أنـضج القطـرة كـالطَّود تُـرى ... حـــاملًا غـــيًا مُفيـــضًا أنهـــرا

أثبـــتِ الـــذَّات وفيهـــا حَقِّـــق ... فِـضةً كـــن بالتئـــام الزِّئبـــق [٢]

ومـــنَ الـــذَّات أَبـــنْ أسرارهـــا ... حـرِّكَنْ عـن لحنهـا أوتارهـا [٣]

قصة الألماس والفحم:

قـصةٌ أخـرى بهـا أُدلي إليـك ... يفـتح الحـقُّ بهـا بابًـا عليـك:

قـال للألمـاس فحـمُ المعـدِن: ... يـا حليـفَ النُّـور طـول الـزَّمن!

نحـــن صـــنوان نَمانـــا والـــدُ ... أصـلُنا في الكـون أصـلٌ واحـدُ

وعـلى التيجـان أنـت الزينـةُ ... وأنـا في الـتُّرب حظِّـي الذلَّـة

لـك حـسنٌ في المرايـا يـسطعُ ... وأنـا مِـنْ كـفِّ تـرب أضـيَع

مـن ظلامـي قـد أضـاء المجمـرُ ... ورمـــــادًا آض فيَّ الجـــــوهر

مَـوطئ الأقـدام بـين البـشر ... قـدرموا في مهجتـي بالـشَّرَر

إنَّ حـــالي ببكـــاء لَحَـــرى ... هل ترى أصلي وفصلي هل ترى؟

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٧ - ١٥٩).

(٢) كن في صلابة الفضّة باجتماع الذرّات المضطربه كالزئبق.

(٣) «ديوان إقبال» (١/ ١٦٣).

إنَّنـــي مـــوج دُخـــانٍ يُعقَـــد ... كـــلُّ مـــا فيَّ شرارٌ يَـــصعدُ
ومـــن الأنجـــم فيـــكَ الرَّونـــقُ ... كـــلُّ جنـــبٍ فيـــك نـــورٌ يُـــشرق
تـــارةً نـــورٌ بعينَـــيْ قيـــصرا ... تـــارةً فـــصٌّ يـــزين الخِنجـــرا

قـال: فاسـمع يـا رفيقـي وافهـما ... ينـضج الـتربُ فيغـدو خاتَمـا
شـنَّ فـيما حولـه حربًـا ومـرّ ... وغـدا بـالحرب صـلبًا كـالحجر
هـيكلي مِـنْ نـضجه قـد نـوَّرا ... وبـصدري كـم شـعاعٍ أسـفرا
أنـت مِـنْ ضَـعفٍ وكيـان تنفَـق ... وبلـــينٍ في قـــوام تُحْـــرَق
اهجُـرنْ خوفًـا وغـمًّا لا تهُـن ... وانضَجَنْ كالصَّخر والألماس كُـن
مـن أجـاد الـسعي والأخـذ معـا ... فهـو في الـدَّارين بـدرٌ طلعـا
وبحِجْـر الكعبـةِ انظـر حجـرا ... كـانَ مـنْ قبـلُ ترابًـا حُقِـرا
جـاوَزَ الطـورَ عـلاءً لا جـرم ... ورَجَـتْ تقبيلَـهُ كـلُّ الأمـم
قـوةُ الأحيـاء عـزٌّ ونجـاهْ ... والونَى والذلُّ منْ ضعفِ الحياه [1]

(١) المصدر السابق (١/ ١٦٣- ١٦٤).

محاورة نهر الجنّح وجبل همالا.. ومعنى دوام حياة الأمَّة في التمسُّك بسنَّتها:

جـاش نهـر الجـنج يومًـا جـائلا ... في سـفوح مـن هِمـالا قـائلًا: (١)

صـاغك الحـقُّ نجيًّـا للسَّماء ... وحمـى رجلَـك سـيرًا في العـراء

قُيِّـدت رجلُـك عـن سـيرٍ فمـا ... هيبـةٌ فيـك ورأسٌ قـد سـما؟

إنـما العـيش مـسيرٌ وُصـلا ... وحيـاةُ المـوْج في أن يجفِـلا

غـضِبَ الطَّـودُ لقـول النَّهَـرِ ... فرمـت أنفاسُـه بالـشررِ

قـال: يـا مـرآة وجهـي! ويلكـا ... كم حوى صدري بخـارًا مثلَكـا

إنَّ هـذا الـسَّيْرَ فيـهِ الحَـيْنُ لـكْ ... مـنْ يـزُل عـنْ نفسه يومًـا هلـكْ

بمقَـام لـكَ هـلَّا تأبَـه! ... أفخـارٌ بـالرَّدى يـا أبلـهُ!

يـا وليـد الفَلـك المرتفـعِ! ... صِرْتَ دونَ الـسَّاحل المتَّـضِعِ

قد وهبتَ النَّفس بحرًا غاصبا ... وأبحـت الـرُّوح لـصًا سـالبا

كُـنْ كـوردٍ في رُبـاه عـاكفِ ... لا تَـرُم للـريح كـفَّ القـاطف (٢)

إنَّـما العـيشُ نـماءٌ في المكـانْ ... وبروضِ الذَّات قطـفُ الأقحـوانْ

في دهـورٍ لم تُزحَـزحْ أرجُـلي ... أتُـراني زائـلًا عـن منـزلي؟

---

(١) الخطاب من نهر الجنج لجبل همالا، وخلاصة المحاورة: أن النهر يعيِّر الجبل بالعجز عن المسير فيجيب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه، وأنَّ الفناء في زواله عن مقوماته. وهذه المحاورة تصوِّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها، وأنَّ نفيها، أو الغفلة عنها يودي بها.

(٢) الريح: الرائحة. لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك.

وإلى الأفـــلاك قـــدِّي يـــصعد ... فعـــلى ســـفحي الثُّريـــا ترقـــد
أنـــت تَفنـــى في خِـــضَمٍّ خِـــضرِمِ ... وقـــلالي مـــسجدٌ للأنجـــمِ
وبعينـــــي لاح سرُّ الفلـــــكِ ... وبـــسمعي طـــيرانُ المَلـــكِ
وبنـــارِ الجـــدِّ طـــولَ الـــدَّهَر ... قد حوى صدري صنوفَ الجـوْهرِ
«صخرٌ قلبي ونـاري في الـصَّخر ... لـــيس للـــماء إلى نـــاري ممـــرّ»
قطـرةً إن كنـت فـاحفظ نفـسكا ... جاهـد الأمـواج واجنُـب يأسكا
وابتـغِ النُّـور وكـنْ درًّا يُـضيءْ ... ثـم كـن قُرْطًـا عـلى وجـهٍ وضيء
أو فـزد واعـلُ سـحابًا ممطـرا ... يُـشعل الـبرق ويهمـي أبحـرا [1]
يبـسط البحـرُ لجـدواك يـدا ... شـاكيًا مـنْ فاقـةٍ يرجـو النَّـدى
فهـو في فيـضك دون الموجـة ... وهـو في جـدواكَ بـادي الذِّلَّـة [2]

مَن كانوا عُلاة الهمم وزينة الدنيا:

صِرْت يـا إكـسيرُ تُرْبًـا سـافلا ... يـا وليـدَ الحـقِّ صِرْتَ البـاطِلا
اقطـع الأكـوان حُـرًّا لا تَهُـنْ ... شـمعةً في محفـل الأحـرارِ كُـنْ
إيـه يـا غافـلُ عـن أصـل الزَّمـانْ ... كيف تدري ما خلود الحيوان [3][4]

---

(١) إن كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتىٰ تصير لؤلؤة، أوْ كُنْ سحابا.
(٢) «ديوان إقبال» (١/ ١٦٥ - ١٦٧).
(٣) الحيوان: الحياة.
(٤) انظر «ديوان إقبال» (١/ ١٧٤).

□ وقال:

أيــنَ أيــامٌ بهــا ســيفُ الــدهَر ... صرَّفتْــه في أيادينــا القُــدَر!

قد غرسنا الدِّين في أرض القلوب ... وجلونا الحـقَّ مـن سـتر الغيـوبْ

ومِــنَ الــدُّنيا حلَلنــا العُقَــدا ... واســتنار الــتُّربُ منّــا سُــجَّدا

منْ كؤوس الحقِّ صرَّفنا الرَّحيق ... وهَــدَمْنا حانــةَ العــصرِ العتيــقْ

كأسُــنا كانــتْ سِراجَ المحفِــل ... صَــدْرُنا كــانَ لقلــبِ مُــشعَلِ

إنَّ هــذا العــصرَ مِــنْ آثارنــا ... مــن عَجــاج ثــارَ في تــسيارنا

روضــةُ الحــقِّ ارتــوت مِــنْ دمنــا ... عــزَّ أهــلُ الحــقِّ في الــدنيا بنــا

كــبَّر العــالَمُ مــن تكبيرنــا ... كعَبــاتٍ شــادَ مِــنْ تعميرنــا

«اقــرأ» الحــقُّ لنــا قــدْ علَّمــا ... بيــدينا رزقَــهُ قــد قــسَّما [1]

فلــدينا عــزَّةٌ مــنْ «لا إلــه» ... نحــن لِلْكَــونينِ حُــرَّاسٌ أبَــاهْ

قَــدْ تركنــا غــمَّ أمــس وغــد ... ووفينــا لحبيــبٍ أوْحَــدِ

نحــنُ ورَّاثُ هــداةٍ للبــشرْ ... نحــنُ عنــد الحــقِّ سرٌّ مــدَّخر

لا تــزال الــشمس تُبــدي نورنــا ... غيمُنــا فيــهِ بــروقٌ وسَــنا

ذاتُنــا المــرآة للحــقِّ، اعلَــم ... آيــةُ الحــقِّ وجــودُ المــسلم [2]

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ١٧٦ - ١٧٧).

عالي الهمة:

نـــائحٌ والليـــل ســـاج ســـادلُ ... يهجَـعُ النـاسُ ودمعـي هاطـلُ
تـــصطلي روحـــي بحـــزنٍ وألمْ ... وردُ «يـا قيُّـوم» أُنْـسي في الظُّلَـمْ
أمـــلًا في الـــصدر صـــيَّرتُ دمـــا ... لـــيُرَى في أدمُعـــي مُنـــسجما
مـــا احتراقـــي كـــشقيقٍ أبـــدا ... فيم أستجدي من الفجر النَّدى[1]
أنـــا كالـــشَّمع دمـــوعي غُـــسُلي ... في ظـــلام الليـــل أذكـــى شُـــعَلي
محفـــلُ النـــاس بنـــوري يُـــشرقُ ... أنـــشرُ النُّـــور ونَفـــسي أحـــرقُ
مـــا لنـــاري في الحـــشا مـــن فَـــترةٍ ... مـــا بأســـبوعي فَـــراغُ الجمعـــة[2]
إنَّ روحـــي في ســـحيق الجَـــسد ... آهـــةٌ ثـــوبَ غبـــارٍ ترتـــدي[3]
مُـــذْ بـــراني الحـــقُّ فجـــرَ الخلقـــة ... زلزلـــتْ أوتـــارَ عـــودي أنَّتـــي
أنَّـــةٌ للْعِـــشْق تُفـــشي سرّهُ ... آهـــةٌ في العِـــشْق تُـــذكي جمـــرهُ
تعجـــل العـــصفَ لهيبًـــا يُحـــرقُ ... وفَراشًـــا مـــنْ تـــراب تخلُـــق[4] [5]

---

(١) الشقيق: زهر أحمر بجعله الشعراء مثلاً للاحتراق. ويقول إقبال: ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له، ولماذا أستجدي الندىٰ من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر. أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعي ندىٰ.

(٢) أيامه كلُّها عملٌ وجهدٌ، ليس فيها يوم راحة.

(٣) روحه آهة والجسد تراب يسترها كما يتردىٰ الإعصار بالغبار.

(٤) تجعل العصف – وهو الهشيم ضعيف اللهب- نارًا قوية تحرق غيرها، وتخلق من التراب فراشًا هائمًا يهفو علىٰ النار.

(٥) «ديوان إقبال» (١/ ١٨٩).

لا.. لا يا قيود الأرض.. الأرض لا تحدُّني وتعوقني:

لا تحـدُّ الأرضُ قلـبَ المـسلمِ ... لا يُـرَى في تيـهِ «أنَّـى وكـم»[1]

لـيس للمـسلم في الأرض عَطـنْ ... حـائرٌ في قلبـه كـلُّ وطـنْ[2]

حـصِّلِ القلـبَ ففـي وُسْـعَتِهِ ... ضـلَّ هـذا الكـونُ في فُـسْحته

عقـدةَ الأقـوات حـلَّ المـسلمُ ... هجـر الـدارَ الإمـامُ الأعظـم[3]

أمـةً مـلء الـدُّنَى قـد أسَّـسا ... جعـل التَّوحيـد فيهـا أسُـسا

صـارتِ الأرضُ لـدينا مَـسْجِدا ... إذ أشـاعَ الفَـضْلَ فينـا وهـدى

ذلكَ المحمـودُ في الـذِّكرِ الحكـيمْ ... ذلـكَ المحفـوظُ بـالله الـرَّحيم

تفـزعُ الأعـداءُ مـنْ هيبتـهِ ... في ارتعـادٍ مـنْ سَـنا طلعتـهِ

فلـماذا أرض أهليـهِ هجـرْ؟ ... أتـراه خـشية الأعـداء فـرّ؟

حجبَ القـصَّاصُ معنـى القـصَّةِ ... غلطـوا في فهـم معنـى الهجـرة

هجـرةٌ شَرْعُ حيـاةِ المـسلمِ ... هجـرةٌ سرُّ ثبـاتِ المُـسلم

---

(١) أي: لا يتيهِ في عالم العِلل والمقادير.

(٢) يقول إقبال في ديوان «ضرب الكليم»:

إنما الكافر حيـرا ... ن له الآفـاق تـيه

وأرىٰ المؤمن كوْنًا ... تاهت الآفـاق فيه

يعني: أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم، بل يسخرُّها كما يشاء.

(٣) الإمام الأعظم رسولُ الله ﷺ.

إنهـا التِّـسيار نَحْـو الوُسـعةِ ... ولأجـل الـيمِّ تـركُ القطـرة[1]

اهجـرِ الزَّهـرة أجْـلَ الروضـة ... إنَّ هـذا الخـسْرَ ربـحُ الكثـرةِ

شرفُ الـشَّمْسِ مـسيرٌ مطلـقُ ... فيـه مـن فـوق البرايـا تخفُـق

لا تكـنْ نهـرًا مـن الـسُّحْب يُمَـدّ ... وكـن البحـرَ، عُبابًـا لا يُحَـدّ

اقـصدن تـسخير كـلِّ العـالَم ... لـتُرى لـسلطانَ أهـلِ العـالَم

لا يقيِّـدُك مُقـامٌ في الـورى ... وكـنِ الحـوتَ يَـسيحُ الأبحُـرا

كـلُّ مـن حُـرِّر مِـنْ ذُلِّ الجهـات ... فلـكٌ يُزهِـرْ مـنْ كـلِّ الجهـاتْ

تـركَ الـوردَ شـذاهُ فـسرى ... في فـسيح المـرْجِ عِطْـرًا نَـشَرا

يـا أسـيرًا قـد ثـوى في روضـةِ ... عنـدليبًا هـائمًا في وردةِ!

سـيِّرَنْ نفـسك حـرًّا كالـصَّبا ... ثـم عـانق كـلَّ أزهـار الرُّبَـى

فـانتظِمْ في سـلكه كالـدُّررِ ... أوْ غبـارًا في الرِّيـاح انتـشِرِ[2]

إنما الحياة هكذا: علو الهمّة والعيش بين الخطر:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

سرُّ هـذا الأمـر يـا ذا البـصر: ... «الحيـاةُ العـيشُ بـين الخَطـرِ»

---

(١) في القرآن الكريم: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[النساء: ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي يتيسر فيه أداء الواجب.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٢١٧- ٢١٨).

يتحـــدَّاك برضـــوى العاليـــه ... في امتحـــانِ لِقِـــواكَ العاتيـــه
ويناديـــك أن اقـــصمْ ظهرهـــا ... وبحـدِّ السيف فاصـهرْ صـخرها
لـيس كـفءَ الليـث في صـولته ... حَمَـــلٌ يرجـــفُ في ذلَّتـــه
إنْ حكـى الـصَّعوةَ صـقرٌ كـاسِرُ ... فهْـــوَ كالـــصَّعوة واهٍ خـــائِرَ
كتـــبَ الـــشارعُ ربُّ الحكمـــة ... لـكَ هـذا اللـوحَ، لـوحَ القُـدْرَة
يَـــشْحذُ العـــزم بنـــارِ العمـــل ... ويرقِّيـــكَ لأعـــلى مَنْـــزِل
وإذا تَلْغَـــبُ يعطيـــك القُـــوى ... ويـــربِّي منـك طـودًا مـا خَـوى
إنَّ ديـن المـصطفى ديـنُ الحيـاه ... شَرْعُـــه للنَّـــاس قـــانون الحيـــاه
إنْ تكـنْ أرضًـا يـصيِّرُكَ الـسَّماءْ ... ويربِّيـــك كـــما الحـــقُّ يـــشاءْ
يـصقل المـرآةَ مِـنْ صـخرٍ شـديد ... وينقِّـي الـرِّينَ مـنْ قلـبِ الحديـدْ
ضـيَّع القـومُ شـعارَ المـصطفى ... ضـــيَّعوا رَمـــز بقـــاءٍ عُرِفـــا
ذلـك الغـصن العـسِيُّ المعـتلي ... مُـسلمُ الـصَّحراء ربُّ الجَمَـل
الـذي البطحـاء أزكـتْ غَرْسَـهُ ... وريـــاحُ البيـــد ربَّـــت نفـــسَه
أذْبَلتْـــهُ اليـــومَ ريـــحُ العَجـــم ... صـــيَّرته النـــايَ روحُ العَجَـــم
قاتـــلُ الآســـاد ذبـــحَ الغـــنم ... وطءُ نمـــل مـــسَّه بـــالألم
مـن أذابَ الـصَّخرَ مـن تكبـيره ... راعـــه البلبـــل في تـــصفيره
مـن عـلا الطـودَ سريعًـا مُـصعِدا ... غـــلَّ بـــالتُّكلان رجـــلًا ويـــدا
من بـرى الأعنـاق ضربًـا عَـضبُه ... يَلْـدِمُ الـصَّدر ويَـدمَى قلبُـه
مُـوقظ الآفـاق مِـنْ خطَواتـهِ ... قُيِّـــدت رجـــلاه في خَلْواتـــه

مـنْ أطـاع النـاسُ طـرًّا أمـرَه ... واجتـدى دارا وكـسرى بـرَّه
رضي القُنـع وأكـدَى جِـدُّه ... وارتـضى الكِدْيـةَ عِـزًّا جَـدُّه

كمـماتِ الفـردِ تفنـى الأمـمُ ... ولهـا يومًـا قـضاءٌ يُحـتَمُ
أمـة الإسـلام تـأبى أجـلا ... أصلها الميثاق في ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ (١)
لا تخـاف المـوتَ هـذي الأمَّـةُ ... ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ لـديها حجـةُ (٢)
دامَ ذكـرٌ مـا أقـام الـذَّاكرُ ... بـدوام الـذِّكر دامَ الـذَّاكر (٣)
ذلـك المـصباح أنَّـى يُطفَـأ؟ ... قال ربي عالمًا: ﴿أَن يُطْفِـُٔوا﴾ (٤)
أمَّـة الحـقِّ إلى الحـقِّ تُنيـبْ ... أمَّـةٌ يَعْـشَقُها أهـلُ القلـوب (٥)
مُصْلتٌ بالحقِّ ذا السَّيفُ الـصَّقيلْ ... مُصْلتٌ من غمد آمـال الخليـل (٦)

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢] يعني: أنها قائمة على عقيدةٍ أزليةٍ عامةٍ خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة.

(٢) إشارة إلى الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

(٣) المعنى: إن كان الذكر محفوظًا فلا بدَّ أن يدوم الذَّاكر، فلا ذكر بدون ذاكر.

(٤) الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢﴾ [التوبة: ٣٢].

(٥) إلى الحق تنيب: الحق هنا الله تعالى.

(٦) إبراهيم الخليل: كان يأمل أن تخرج من ذريته أمةٌ موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة.

ما سوى الحقِّ محاهُ برقُه ... ليعيد الحقَّ حيًّا نطقُه

نحنُ للتَّوحيد أقوى حجةٍ ... للكتابِ اختارنا والحكمةِ[1]

روضنا كان لهيبُ التترَ ... حَلْيَنا كان نِثارُ الشَّرر[2]

فلإبراهيم فينا فطرةٌ ... وإلى المولى لدينا نسبةُ

من لهيب قد جنينا زهَرا ... نار نمرودٍ رَدَدْنا كوثرا

كلُّ نارٍ يوقدُ الدَّهرُ لنا ... زهراتٌ حين تأتي روضَنا

ذهب الروم وفُضَّ الموكبُ ... شرقُها أقوى وأقوى المغربُ

كأسُ ساسان من الغمِّ دَمُ ... حانُ يونان خرابٌ مُظلم[3]

عابدَ الواحدِ! وحِّد واهجرن ... كلَّ تفريقٍ وللحقِّ ارجعَنْ

أيُّها المُغفل معنى الكلم ... أثبتَنْ في القلب ألفاظَ الفَم

قوّةَ الإيمان زِدْ بالعملِ ... مات إيمانٌ إذا لم يَعْمل[4]

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١].

(٢) يعني: كانت نار التتر علينا بردًا وسلامًا، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم.

(٣) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي.

(٤) «ديوان إقبال» (١/ ٢٣٦- ٢٣٨).

عالي الهمة يقنع باليسير ولا يمد اليد إلى العير:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

أشعِرَنَّ القلبَ «الله الصمد» تَخَلَّصَنْ مِنْ قيد أسباب وحدّ
ليسَ عبدُ الله عبدَ السَبب ما الحياةُ الحقُّ دورَ اللَّولب [1]
ليسَ غيرَ الله يرجو المسلمُ وهْو للنَّاس جميعًا سَلَمُ
لا تبُثَّنَّ شَكاةً أحدا لا تمدَّنَّ إلى الخَلق يدا
فيمَ للأجواد حملُ المِنَن أنت، منْ لا ونعَم في حَزنِ
لا ترُم ورق لئيم يُنغصُ يوسفٌ أنت، فأنَّى ترخُصُ؟
إنْ تكن نملًا وكنتَ المقْعَدا لا تؤمِّل منْ سليمان جَدَى
خفِّفِ الزاد، طريقٌ وعِرُ عشْ ومتْ حرًّا. عداك الغَرَرُ
اجعلن «أقلِلْ من الدُّنيا» الشِّعارْ و«تعش حرًّا» بها كلَّ الفخار
وكن الإكسيرَ لا التُّربَ بها معطيًا لا سائلًا. في حبِّها [2]

أنت قد غرَّك صبحٌ كاذبُ أنت عن نَفْسِك حقًّا ذاهب
أنت شمسٌ نَفسَك اعرِف كلَّ حين لا تُضئها منْ نجوم الآخرين
إنَّ في قلبك نفسًا من سواك باعَتِ الآكسيرَ بالتُّرب يداك

---

(١) إن أخْلَصَ الإنسان لله، وتوكَّل عليه لا يقيده ما يقيد الناس من أسباب، بل يخلق هو وسائله إلى غاياته، وليست الحياة دورات آلية بل فيها إرادةُ الإنسان وعزيمته.

(٢) الضمير يرجع إلى الدنيا.

حَـيٌّ فـرْدٌ نفـسَه قـد عَرفـا ... وقبيـل عـن سـواه صـدفا
عـن طريـق المـصطفى لا تـذهبَنْ ... واتـرك الأربـاب، والله اعبُـدَن[1]

عالي الهمة سما فوق السماوات العُلَى:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قـد سـما المـسلم أعـلَى مَـنْ سَـما ... لـيس يـرضى بمُـسامٍ في السَّما
وِردُه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ في المـأزِق ... ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ تـاجُ المَفـرِق
حمـلَ الكـونين طـرًّا ظَهـرُه ... وحـوى بـرًّا وبحـرًا صـدرُه
أذْنُـه للرَّعـد إمَّـا جَلجـلا ... صـدرُه لِلْـبَرق إمَّـا نـزلا
قاتِـلُ الـزُّور، وللحـقِّ وزَرْ ... أمـرُه المعيـار في خـيرٍ وشرّ
جمـرُه كـلُّ لهيـبٍ في حـشاه ... جـوهرٌ فيـه كـمالٌ للحيـاه
لـيس في ضوضـاء هـذي الأمـم ... نغمـةٌ إلا أذانَ المُـسلمِ
هـو في العفـو وفي البـذل عظـيمْ ... وهـو حـين القَهـر ذو طبـعٍ كـريم
لُطفُـه في الحَفـلِ جـبرُ المنكـسِرْ ... قهـرُه في الحـرب صـهرٌ للحجَـر
هـو في الـرَّوض صـفيرُ البُلبـلِ ... وهو في البِيـد انقـضاض الأجـدل
قلبـه تحـت سَـماءٍ لا يقـرّ ... هـو فـوق الزُّهْـرِ مـا إن يـستقرّ
طـائرٌ ينقُـر نجـمَ الحُبـكِ ... طـائرًا فـيما وراء الفَلَـكِ

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١).

أنتَ، يا منْ لم يَطِرْ منك جَناحْ! دودةٌ في ظلمةِ التُّرب تُراح
مستكينٌ تشتكي جور الزَّمانْ قد أصبتَ الذُّلَّ من هَجر القُران [1]
قد هَبَطْتَ الأرضَ طُهرًا كالنَّدى بالكتاب الحيِّ أمسكت يدا
فإلام العيشُ في التُّرب؟ ارحلا اصعدَنْ فوق السمواتِ العُلَى [2]

كلمات نيّرات:

عليك السَّيْرَ لا ترغب مَقيلا وسرْ كالشَّمس لا تَرقُبْ دليلا
وهَبْ للآخرينَ متاعَ عقل ونارَ العِشْق فاحْفَظْها بَديلا

يرى قلبُ الشُّجاع الليث وهمًا وفي قلب الجبان الظَّبي بَبْرُ
فإن تجبُنْ رأيت الموجَ وحشًا وإنْ تشجُعْ فإنَّ البَحْرَ برُّ

تقول: بطيرنا عَلِقتْ قيودُ وفي شَركِ الجسوم لها هودُ
ومعنى الرُّوح بالأجسام يعلو مِسنُّ سيوفنا هذي الغُمودُ

طريقُك فانحتنه في كفاح طريقُ سواك مسلكُه عذابُ
فإنْ أبدعت في عمل فريّ لك الحسنى حبيبي والثوابُ

---

(١) القُران: والقُرآن.
(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٢٤٣- ٢٤٤).

دليلُ القلب لا يرضى نزولًا ... ولا يُرضيه ماؤك والتُّرابُ
فلا تحسبه في جسدٍ مقيمًا ... فلا يرضى بشطِّ ذا العُباب

إلام تعيش في رثِّ الإهاب؟ ... إلام تعيش نملًا في تراب؟
فَطِرْ كالصَّقر معتزمًا وحلِّقْ ... إلامَ أسيرُ حبٍّ في اليَبَابِ؟

نصيحة صقر لفرخه:

تعلَّم بنيَّ بأنَّ الصُّقورْ ... لها قلبُ ليثٍ وجسمٌ صغير
فكنْ مُحْكَم الرأى شهمًا جسورا ... عليَّ السجايا أبيًّا غيورا
بُغاث الطيور اهجرنها بعيدا ... ودعها إذا لم تُردْ أن تصيدا
فتلكَ الرعاديدُ نسلُ اللئام ... تدسُّ مناقيرها في الرَّغامْ
أرى البازَ صيدًا لما اصطاده ... إذا قلَّد الصيد ما اعتاده [1]
فكم باشقٍ قد أتاه النَّوى ... بصحبةِ لقَّاطِ حبٍّ هوى
فنفسكَ فاحفظْ وعِشْ في جذل ... جريئًا متينًا قويَّ العضل
ودعْ للدراريج [2] لينَ الجَسَدْ ... وكن مخلبًا كالمُدَى أوْ أحَدّ
متاعُ الحياة، تعلَّم، جهادُ ... وصَبْرٌ على محنةٍ واجتهادُ
نقول لفرخ عقاب عتيق ... «بريق الدماءِ يفوقُ العقيق»

---

(١) يعني: إنْ قلَّد الصقر الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيدًا لها مغلوبًا على أمره.

(٢) الدراريج: جمع دراج وهو طائرٌ معروف.

ولا تبغ سِرْبًا كَسِرْبِ الغنمْ ... توحَّدْ كقومِك منذ القِدَمْ
سمعتُ وصاة الصُّقور العتاق ... بألَّا نقيم بظلٍّ وساق
فليس لنا في رياض مجال ... فسيحُ الفيافي لنا والجبالْ
ولقْطك حبًّا بأرض خطاء ... حبانا الإله عنان السماء
فأمَّا خطيْ في التراب النجيب [1] ... فأشرفُ منه حِمامٌ مُريب
فإن بساط البزاة الحجرْ ... يحدّ مخالبهنَّ الصَّخرْ
نماك الأوابد زرق العيون ... كأنك عنقاء جوٍّ متين
أصيلٌ أبيٌّ بيوم الخَطَرْ ... كفيل بإنسانِ عين النمَرْ
جناحُك من سَطَواتِ البروق ... من الشهب [2] فيك كريم العروق
فَطِرْ في السماوات لا تخش خطبا ... وكلْ ما أصبت يبسًا ورَطْبًا
ولا تَقْبَلَنْ طعمةً من أَحَدْ ... وكنْ راشِدًا واستمع للرَّشَدْ [3]

حياتَك فابغِ في الخطر الجليل:

غزالٌ بثَّ شكواه غَزَالًا ... فَقَال سأقصُدُ البلَدَ الحرامَا
أرى الصَّيَّاد حولي كلَّ حينٍ ... فلا أستطيعُ في أرض مُقامَا
أبدِّل خيفةَ الصَّيَّاد أمْنا ... وأنفي الغمَّ عن قلبي المعنَّى
أجابَ رفيقُه أن يا خَليلي ... حَياتَكَ فابغِ في الخَطَرِ الجَليل

---

(١) يعني: الصقر ونحوه.
(٢) الشهب: أي البيض، وفيها تورية بشهب السماء.
(٣) «ديوان إقبال» (١/ ٢٨٥- ٢٨٦).

ونفْسَكَ فَاشحذنْ في كلِّ آنِ ... وعش أمضَى من السيف اليَماني
ففي الأخطار لِلْهِمَم اختبارُ ... لأرواح وأجسادٍ عيارُ [1]

فِطرتي لا ترتضي دَعة المنازل:

ماذا أقولُ وفطرتي ... لا تَرتضي دَعة المنازلْ
قلبي على قلقٍ كما ... تهفو الصَّبا حولَ الخمائلْ
فإذا نظرتُ إلى جميل ... رائع حلوِ الشَّمائلْ
خَفَقَ الفؤادُ إلى الَّذي ... يعلوه حسنًا في المحافلْ
فمنَ الشرار إلى النُّجوم ... إلى الشُّموس رقيّ آملْ
إنِّي ليهلكني القرارُ فما ... أعوجُ على المراحلْ
وإذا شربتُ منَ الرَّبيع ... الكاس تسري في المفاصلْ
أشدو بشعرٍ آخرٍ ... وربيعي الآتي أغازلْ
طلبي النهايةُ في الَّذي ... لا ينتهي فيه المُسائلْ
لا صابرٌ نَظَري ولا ... قلبي عن الآمالِ غافلْ [2]

شررًا كُنَّا:

أمَّة كانت ومن حكمتها ... نحنُ آثارٌ على مرِّ العُصورْ
قد عرفنا سرَّ تقديرِ مضى ... فمضينا نقتفي سرَّ الدهورْ
شررًا كنا، أجدنا نظرًا ... فإذا شمسٌ على الكونِ تسيرْ

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٢٩٥- ٢٩٦).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٩٧).

صرصر البيـــداءِ في فطرتنـــا ... أذبلتْ ريحُ الصَّبا فينا الزُّهورْ
رُبَّ صـيدٍ قـد أخـذنا وثبـةً ... دون أشراكٍ كما انقضَّت صقور
كلما أمكَنَ طرفٌ فاركضنْ ... كم أماتَ العزمَ تدبيرُ الأمور[1]

لنا غايةٌ من الشمس أعلى:

ولنا غايةٌ من الشمس أعلى ... إنها الشمس صُوَّة الرَّكْتانِ[2]
إيه يا قطوةً عن النفس تاهتْ ... تطلبين المحالَ في الأكْوانِ
إنَّ عارًا معيشة البحر إن لم ... تطلعني منه درَّةً ذات شان
يا جهولًا بقدر نفسك لولا ... أنت كان العتيق كالصَّوان[3] [4]

يا لها من أمنيات:

مُنيتي أن يتجلَّى ... ذلك البدرُ التَّمامُ
فيدي تُمْسكُ صدري ... وبعينيَّ اقتحامُ
ويقول الحسن: صبحي ... ليس يغشاه ظلام
فيقولُ الحبُّ: وجدي ... ليس يخبو والهيام
ليس من يومي وأمسي ... وغدي فيَّ زمام

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٠٢).
(٢) الصُّوَّة: أحجار تجعل علامة على الطريق.
(٣) يعني أن الإنسان جهل قدر نفسه وقدَّر أشياء ليس لها قيمة إلا بتقديره.
(٤) «ديوان إقبال» (١/ ٣١٠- ٣١١).

لـــيس لي نَجْـــدٌ وغـــورٌ ... لـــيس يحـــويني مقـــام
رِقَّـــة الأسرار أبغـــي ... وكؤوسًـــا لا تـــرام
ولتـــسنيم الجنـــان ... طهـــر حـــورٍ في الخيـــام
بـــل ونظـــرٌ للـــودودِ ... إذ يقـــولُ لي ســـلام
يـــا لإنعـــام الحبيـــب!! ... حـــين ينظـــر.. والكـــلام

□ ولله در القائل:

نحنُ تربٌ، وكـالنجوم سـفارا ... في أعـالي الـسماء نبغـي قـرارا
قـل لأهـل الـسَّماءِ: إنَّ ترابًـا ... نـال بالحـبِّ في الـسماء مطـارَا
نحن في الحبِّ زهـرةٌ في نـسيم ... وبكـدِّ الحيـاة نقـدحُ نـارا

لا يستويان:

أيـنَ مِـنْ يفـق الـشَّواهيـ ... ـن جنـاحُ العنـدليب
أينَ منْ يلقـطُ مِـنْ حـب ... عـلى الأرضِ تريـب
مـن فتـى يلقـط عنقـو ... د الثُّريـا لا يَخِيْـب
أينَ مـنْ يـسري بـروض ... كنـسيم في هبـوب
مَنْ بصير في ضمير الزهـ ... ـر للـسرِّ يـصيب
أيـن فـوق الأرض ظـنٌّ ... سـارَا أو شـكٌّ مريـب
من طموح جـاوز الأفـلا ... كَ لِلْمَـسْرى الرَّحيـب
حبَّـذا عقـلٌ فـسيحٌ ... قـد أحـاطَ العـالَمين
نـورُ أمـلاكٍ ونـا ... ر الأنـسِ فيـه دونَ مـين

نحنُ مِنْ خلوةِ عِشقٍ ... قد برزنا بالسَّجايا
فجعلنا موطئ الأقدا ... م في الأرض مَرايا
فانظرنْ همَّتنا كيـ ... ـف لعبنا بالعطايا
قد أضعنا الكونَ جهرًا ... حينَ حزناهُ خفايا
قدْ نزلنا شطَّ نهرٍ ... نبصرُ الموج سَرايا
تبصرُ الأعينُ سطرًا ... مِنْ غُدُوٍّ وعَشايا
شعلةً كنَّا جميعًا ... وانتثرنا كالشَّررْ
أهلَ شوقٍ وحنينٍ ... ورجاءٍ ونَظَرْ [1]

□ ولله درَّه حين يقول:

رأيت الحب يأبى كُلَّ وغدِ ... كميتِ الطير تأباه الصقور

□ وحين يقول:

قطوفَ الورد! لا تجزعْ لشوكٍ ... كذاك الشَّواكُ من نَفَس الرَّبيع

يا لُبينى أوقدي طال المَدى:

يا لُبينى أوقدي، طالَ المدى ... أوقدي علَّ على النَّار هدى [2]
أوقدي يا لبُن قد حارَ الدَّليل ... أوقدي النَّارَ لأبناءِ السبيل
ارفعي النَّار وأذكي جمرها ... علَّ هذا الركبَ يعشو شطرها

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٢٦- ٣٢٧).

(٢) إشارة إلى الآية في قصة موسى عليه السلام: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه].

شرِّدي هـذا الظـلامَ الجـاثما ... أرشـدي هـذا الفـراشَ الهـائما
حبَّـذا النـارُ بليـل توقـدُ ... حبَّـذا المـؤنسُ هـذا الموقـدُ؟
حبَّـذا عنـدك هـذا النـزلُ ... لـو حوانـا في سـفارٍ منـزل
مـا لـذا المنـزلِ قـد سـار الفريـق ... إنَّـما النِّـيران أعـلامُ الطَّريـق
قـد ترحَّلنـا مـن الفـجِّ العميـق ... لا نبـالي بقريـبٍ أوْ سـحيق
رنَّ في آفاقنـا هـذا النِّـداء ... فأمنـا البيـت يحـدونا الرَّجـاء[1]
قـد غنينـا عـن مبيـتٍ ومقيـلْ ... وعـن الأمـواه والظـلِّ الظَّليـل
وعـن الرَّغبـة والخـوفِ سُـوى ... خُلـع الـنعلان في وادي طـوى[2]
نحـن لا نـرضى بنـار الغَـسَق ... نحـن لا نـرضى بنـور الـشَّفَق
نحن لا نرضى بنجم الـصُّبْح لاح ... لا ولا نـرضى تباشـيرَ الـصَّباحْ
نحـن لا نـرضى نجومًـا لامعـه ... إنـما نبغـى شموسًـا طالعـه
قـد رحلنـا بـالجوى والحُـرقِ ... وغنينـا عـن رسـيم الأينـق
أيـن منـا طـائراتٌ سـبَّق ... جَمَـعَ الغَـرْبُ لهـا والمـشرقُ
نحـن ركـبٌ في جـواه مُوضـع ... لم يَـسَعْهُ في جـواه موضـعُ
كـلُّ حُـرٍّ ضـاق عنـه المـوطنُ ... وانطـوى دون منـاه الـزَّمنُ

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج].

(٢) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه].

كـلُّ طيَّـارٍ عـلى مـتن الفكـر ... وعـلى مـتنِ هيـام لا يقـر
طـائرٌ منـه يغـارُ الملَـك ... طـائرٌ مـن تحتـه ذا الفلـكُ
بـارقٌ في اللَّـوْح لا ينطفـئُ ... كـلُّ غايـاتٍ لديـه مبـدأُ
زوِّينـا بهيـام ووجيـب ... زوِّدي يـا لُـبنَ مِـنْ هـذا اللهيـب

جـالَ في الظلـماءِ نـورٌ مـن نغَـم ... مُزِّقـتْ منـه ديـاجيرُ الظُّلـم
أشـعاعٌ فيـه صـوتُ صـائح ... أمْ كـلامٌ منـه نـورٌ لائـح؟
أذنَ الرَّكـب لهـذا المنـشدِ ... أطربَ الناشـدَ صوتُ المنشد [1]
سـال في القلـب مسيلَ المطـر ... ينبـتُ الـرُّوح بـسهبٍ مقفـرِ
أو خريـرِ المـاء مـن نبـع زُلال ... بـشَّر الغـارقَ في بحـر الرِّمـال
رَنَّ في نفـسي رنـينُ الجـرس ... صـاح في أذني فقيـدٌ مـبلس
طـوتِ البيـداءُ عنـه الـسَّابلهْ ... وهـداهُ الـصَّوْتُ شَـطْرَ القافلـه
سـبقَ القلـبُ إليـه الأذنـا ... كـبلالٍ لـصلاةٍ أذَّنـا
دارَ قلبـي شـطرَ هـذا المطـربِ ... دورةَ الإبـرة شـطر القُطْـبِ
«غنني يـا منيتـي! لحـنَ النُّشور ... ابركـي يـا نـاقتي! تـمَّ الـسُّرور
عُـدْتَ يـا عيـدي إلينـا مرحبـا ... نِعْمَ مـا روَّحـتَ يـا ريـحَ الـصَّبا»

---

(١) المنشد في الشطر الأول: منشد الشعر، وفي الثاني : الذي يدلُّ على الضَّالة، الناشد من ينشدها.

حبذا الصَّوْتُ فَمَنْ هذا البشير؟ ... ومن الهاتفُ بالقَلْبِ الكسير؟
وَمَن المُسْعدُ في هذي الهموم؟ ... ومَن البارقُ في هذي الغيوم؟
ومن الهابط في نورِ السَّما ... هاديًا في الأرض جيلًا مظلما؟
ومن الهادي إلى أرض الحبيب ... يعرف النهج وقد حارَ اللَّبيب؟
ومن السَّائقُ شَطْرَ الحَرَم ... وإلى الأصنام سَيْرَ الأمم؟
ومن القارئ في بيت الصنم ... سورة الإخلاص في هذا النغم؟
وَمَن الحرُّ الذي قد حطما ... من قيود الأسرِ هذا الأدهما؟
وَمَن الآبي على كلِّ القيود ... وَمَنِ القاطِعُ أغلالَ العبيد؟
ومَن الباعثُ في ميت الأمم ... ثورةَ العزَّةِ من هذي الهِمم؟
لاحَ الغُرَّة في هذا السَّواد ... بصَّ كالجمرة في هذا الرَّماد
جرف النَّاس أتيٌّ مزيد ... ضلَّ فيهِ المقتدي والمرْشِدُ
عارض الموج على أغماره ... وطوى اللُّجَّ على تيَّاره
وطغى اللُّجَّ عليه والتطم ... فرسًا كالصَّخر في هذا الخِضَم
سبح اللُّجُّ وبالشطِّ استقر ... داعيًا والناسُ غرقى في النَّهر
يجرفُ التيَّار جسمًا جامدا ... تَقْذِفُ اللُّجَّةُ قلبًا خامدا
إنَّ عزم الحرِّ بحرٌ مُزْبِدُ ... جائشٌ في الدَّهر لا يَتَئِدُ
هذه الأقدارُ في تيسارها ... هِممُ الأحرارِ في أسفارها [1]
ومن الشَّاعر يُذكي القافيه ... فهي نورٌ وهي نارٌ حاميه؟

(١) هذه: مبتدأ، وهمم: خبر.

تَقْشعرُّ الأرضُ من أوزانه ... ويهيمُ النَّجْمُ من ألحانه
هو بالأشعار بحرٌ فائض ... وهو للأزمان قلبٌ نابض
حدَّثته الأرض عن أخبارها ... وحَبَتْهُ الزُّهر من أسرارها
هو بالأمس خبيرٌ بِغَدِ ... وهو اليومَ نجيُّ الأبد
كَشَفَ اللهُ عن الغيب له ... فلسانُ الغيب يُمْلي قوله
عَرَفَ الشَّرقَ وراد المغربا ... فانجلى السِّرُّ له ما كُذبا
فرأى العلمَ سبيلًا للرَّدى ... إذ رأى القلب خليًّا مِنْ هدى
صوتُ هَمَّام على شطِّ المزار ... أسمعَ اليقظان في هذي الدِّيار [1]

هِمم الأحرار تَحيي الرِّحما:

فطرةُ الله التي أوْدَعها ... كلُّ نفسٍ خابَ مَنْ ضَيَّعها
إنها سرُّ الحياة الخالدة ... دونها كلُّ حياةٍ هامدة
إنَّها التيَّارُ مثلَ الكَهْرباء ... إن يُعطَّلْ لمحةً كان الفناء
إنَّما العيشُ جهادٌ لا يَقرّ ... وركودُ الحيِّ موت مستمرّ
من يضيء ذا السرَّ في أعماقه ... ضاقتِ الأفلاكُ عن آفاقه
وتعالى عن حدودِ الأزمنة ... وتجافى عن قيود الأمكنة
شُعلٌ في قوله تضطرم ... وطما في الموت روح العمل

(١) انظر «اللمعات» لعبد الوهاب عزّام بتصرف.. «ديوان إقبال» (١/ ٣٤٦- ٣٤٩).

مُلطعٌ في اليأسِ صُبْحَ الأملِ ... نافخٌ في الموت روح العمل
أرأيت الغيث في أرضٍ موات ... منبتًا فهيا أفانين النَّبات
هِممُ الأحرارِ تحيي الرِّمَما ... نفخةُ الأبرار تحيي الأمما
لا يُصدُّ الحرُّ عمَّا يأمل ... أو يحدُّ البزُّ فيما يفعل
هو بالله العليِّ اتصلا ... جلَّ ربي عن حدودٍ وعلا
منْ يُضيء في قلبه إيمانُه ... وينرْ في سبله وجدانُه
فهو بالله عليٌّ وقويّ ... وهو بالله غنيٌّ ووليّ
جاهد والله في تيسيره ... تحسبُ الأقدارَ في تقديره
قائمٌ بالحقِّ بين البشر ... ما له في باطلٍ منْ وَطَر
يُمْسِك الدُّنيا ولا تُمْسِكُه ... يملك الأرضَ ولا تملكه
وترى الدُّنيا انطوت في كبه ... ليس منها ذرةٌ في قلبه
إنَّه القانون بالله سرى ... عادلًا في حكمه بين الورى
يسعُ النَّاسَ جميعًا همُّه ... في سبيل الله ماضٍ عزمُه
جاهدٌ في الخيرِ لا يتئد ... عزمُه في صَدْرِه يتَّقدُ
وفقيرٌ وغناه لا يُحَدّ ... فقره استغناؤه عنْ كلِّ يد
هو بالله وفي الله غنيّ ... ضاقَ عن هذا الغنى كلُّ ثري

صغار الهمم:

إنَّ في النـاس قلوبًـا جامـده ... جذوةُ الإقـدامِ فيهـا خامـده
همُّهـا مـا يبتغيـه الجـسدُ ... كـلُّ مـا تهـوى طعـامٌ وددُ
حـدَّدَتْ آرابُهـا آفاقَهـا ... فحكتْ في ضِـيقها أخلاقَهـا
لا تبـالي حـين تبغـي أربـا ... عُمِـرَ الكـونُ بـهِ أم خَرِبـا
إنَّـما قانونهـا أهواؤهـا ... سُـخِّرت في نفعهـا آراؤهـا
وتـرى أهواءهـا تغلبُهـا ... كـلَّ حـينٍ في هـوىً يجـذبُها
وإلى الأرض تراهـا تُخْلِـدَه ... لا تُرى نحو المعـالي مُـصْعده
إنَّـما آفاقُهـا هـذا البـدن ... إنَّـما مَبْرَكهـا هـذا العَطَـن
إنَّـما أحياؤهـا كـالرِّمم ... خامداتِ العَزْم موتى الهِمَـم

صُنَّاع الحياة المسلمون نعم العابدون:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنَّـما العـالَمُ طُـرًّا مَعْبَـدُ ... كلُّ مَـنْ أحسنَ، فيـه يَعْبُـد
كـلُّ مَـنْ أدلى بقـولٍ طيِّـب ... ينبـتُ الخيرَ كغيـث صيِّب
كلُّ منْ أحسن يومًـا عمـلا ... كـلُّ مـن أحيـا موانًـا همـلا
كلُّ منْ في أرضـه قـد زرعـا ... ليقيتَ النَّـاس والعُجْـم معـا
كلُّ منْ يغرسُ مخضرَّ الشَّجر ... فيـه للإنـسان ظـلٌّ وثمـر
كل منْ يَنْبِطُ بئـرًا في الـسبيل ... تنفعُ الظمآن منْ حرِّ الغليـل

كـلّ مـنْ يبنـي بنـاءً حسنا ... كـلُّ مـنْ صـنعه قـد أتقنـا
كلُّ مَنْ أحدث علمًا للبشر ... ينفع الناس ولم يقصد لشر
كلُّ مَنْ أحدث فكرًا مُحكما ... يبتغي للناس خيرًا عمما
كـلُّ مَـنْ جـدَّ وإنْ لم يجـد ... لم يـضع وقتًـا بلهـوٍ وددِ
كـل مـن أثـر فيهـا أثـرًا ... خالدًا للخير ما بين الورى
كلُّ مـنْ في دهـره قـد أجملا ... فكـرةً أو قولـةً أو عمـلا
كلّهُـم لله نِعْـمَ العابـدُ ... كلُّهم للخيرِ نعْمَ القاصدُ
فاصطنع للخيرِ فكرًا ويدا ... ولسانًا وابغ في الخير يدا [1]

لا رهبانية في الإسلام:

ليس منا من ثوى في صومعه ... يحبسُ الأعمال والفكر معه
ضاق نفسًا عن مجالٍ وسعا ... فثوى في ضيقهِ قد خَنَعا
ليس شيئًا أنْ تُرَى معتزلا ... عابدًا تخشى البرايا وجِلا
إنَّما العابد منْ خاضَ الحياة ... موضحًا فيه سبيلًا للنَّجاة
آخذًا بالَذْلِ ما عنه حول ... ذاكرًا مولاه في كلِّ عمل
إنَّه بالحق موصولٌ ومَنْ ... يتَّصلْ بالحقِّ لا يخشَ الفتن
ثورةٌ مضمرةٌ في حلمه ... إنْ يفكِّرْ ظالمٌ في ظلمه
أرأيت الصَّقرَ في متنِ الرِّياح ... يطلبُ الرزق بعزم وجناح
طائرًا في الجو يسمو عازما ... لا يُرى حول الدَّنايا حائما

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٠- ٣٥١).

يأكلُ الجوع ولا يرضى الجيف ... لو يراه الجوعُ يومًا ما أسفّ
فإذا الجدُّ رماه في الشَّرك ... لم يطقْ صبرًا عليه فهلك
ليس يحوي الحد يومًا سبك ... فأسار الحدِّ فيه مهلك
يا فتى هذا الجهادُ الأكبر ... عزماتُ الحرِّ فيه تُخبر
قلَّ في النَّاس عليه صابرُ ... ليس إلا الحرُّ فيه ظافر
يا أسير الوَهْم أقدم لا تُبَلْ ... وامضِ فيمن صحَّ عزمًا واتَّكل [1]

عُلوُّ الهمة في التوكل:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَنْ يَنَمْ عن سعيه لا يتَّكل ... إنَّما التكلانُ سعيٌ متَّصل
مُقْدمٌ في أمره المتَّكِلُ ... واثقٌ بالله فيما يأمُلُ
عازمٌ ماضٍ على خيرِ سنن ... لا يبالي بعِقاب أو محَن [2]
أرأيتَ الطَّير في نورِ الصَّباح ... تطلب الرزق بعزم وجناح
أنَّها تخرجُ في كفِّ القدر ... مقدماتٍ لا تبالي بالخطر
طالباتِ الرزق في كلِّ رجا ... تملأ الجوَّ وثوقًا ورَجا
يا لها من أمل قد صوَّرا ... طائرًا يطلب رزقًا قُدِّرا
أرأيت العَزْمَ في شكل جناح ... خافقًا لا ينثني دونَ النَّجاح
لا يصد الطيرَ خوفُ التَّهلُكه ... أو تبالي بطريقِ مهلكه

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٥١- ٣٥٢).
(٢) العقاب: جمع عقبة.

ضرب المختـــار هـــذا مـــثلا ... للـذي يـسعى عظـيمًا أمـلا [1]

أرأيـــتَ الطَّـــير في أوكارهـــا ... راجيـاتٍ رزقهـا في دارهـا؟

ثاويـــاتٍ تبتغـــي أرزاقهـــا ... ليس تَـدْري مـنْ إليهـا سـاقها

مـــن ونـــى في ســـعيه لم يتَّكِـلْ ... إنَّـــه للـــوهم والعَجْـــزِ وكـــل

إنَّـــما الـــتُّكلان عـــزمٌ وعمـــل ... إنَّـــه الإقـدامُ في ضـوء الأمـل

إنَّـــه الإعـــداد والعـــزم معًـــا ... إنَّـــه الحـــرُّ إلى القـصد ســعى

إنَّـــه التقـــديرُ في ســـعي البـــشر ... هو عنـدَ الله مـنْ بعـض القـدر

هِمَـــمُ الأحـــرار في إيمانهـــا ... سُـــنَنُ الخـــلَّاق في أكوانهـــا

ســـنةُ الله التـــي لا تبـــدَّلُ ... مـا لهـا كـرُّ اللّيـالي حـوَّلُ [2]

□وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

آهِ مـــنْ لي بقلـــوبٍ واعيـــه ... مُقْـدِماتٍ في المعـالي سـاعيه

آهِ مَـــنْ يفقـــه هـــذا الكَلِـــما؟ ... آهِ مـــنْ يـــدركُ هـــذا الـــنَّغما؟

أيُّهـا المـسلمُ مـاذا قَـدْ عـدا؟ ... كنتَ في الأرض جهادًا وَهُـدى

آهِ للنُّـــور الـــذي قـــد طفئـــا ... آهِ للْقَلْـــبِ الـــذي قَـــدْ صَـــدِئا

آهِ للنَّـــار الـــذي تـــشتعل ... فيـضيء الأرضَ منهـا شُـعَلُ

خَمَـدتْ فالقلـب بـردٌ وهمـود ... خَمَدَتْ فـالنَّفس عَجْـزٌ وركـود

---

(١) كما جاء في الحديث: لو توكلتم على الله حق التوكل؛ لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا، وتروح بطانا.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٢- ٣٥٣).

إنَّ هـذا القـول زِنْـدٌ وحجـر ... ليت شعري هل لديه مـنْ شرر
إننـي أُضْرِمُ هـذا الألمـا ... علَّـه في القلـب يـذكي ضَرَمـا
إننـي أنفـخُ في هـذا السَّواد ... عـلَّ جمـرًا محرقًـا تحـت الرَّمـاد
علَّنـي أُذْهـبُ هـذا الخبثـا ... علَّنـي أمْحَـقُ هـذا العبثـا
إنَّنـي أبعـثُ فـيهم نغمـي ... علَّنـي أبْعـثُ مَيْـتَ الهمـم
إنَّنـي أُمْطـرُ في أرضٍ مـوات ... علَّهـا تُنْبـتُ ألـوان النَّبـات[1]

الأمل وعلو الهمة:

لا ترانـا في جهـادٍ نيـأسُ ... لَـيْسَ مِـنْ أمَّتنـا مَـنْ يئـسوا
أشـعل الإيـمان في كـلِّ دُجـى ... واقـدحِ العـزم إذا الهَـوْلُ دجـا
وَارْفَعَـنْ في كـلِّ ليـلٍ شُـعَلا ... وابعـثنْ مِـنْ كـلِّ يـأسٍ أمـلا
وصـلِ القَلْـبَ بخـلَّاق الرجـاء ... واخلقَـنْ في كـلِّ حـينٍ مـا تـشاء
إنـما الإنـسانُ فكـرٌ وعَمَـل ... يَـصْدعُ الظلـماءَ في نـور الأمـل
أمـل الإنـسان في القلـب ضـياء ... وهـو في الكـفِّ جهـادٌ ومَـضاء
إنَّـه النَّـار التـي تَـشْتَعلُ ... إنَّـه الـنَّجمُ الـذي لا يأفُـلُ
إنْ دَجَـا باليـأس ليـلٌ غَيْهَـب ... يَـصْدَعُ الظُّلمـةَ هـذا الكوكـبُ
هـو وَحْـيُ اللهِ يهـدي عبـده ... ويُرِيـه في الـدَّياجي قَـصْدَه

(١) المصدر السابق (١/ ٣٥٣).

هـو نـورُ الله في أفـق النجـاه ... هـو هـدي الله في هـذي الحيـاه
إنَّـه القُطـب إليـه يَنْـزعُ ... كـلُّ قلـبٍ وإليـه يَفْـزعُ
إبـرةٌ تهـدي إلى قَـصْدِ السبيل ... تَقْـصدُ القُطْـبَ وعنـه لا تميـل
يـا دلـيلًا هاديًـا في كـلِّ واد ... أنـت سرُّ الله في كـلِّ فـؤاد
يَقْـدحُ القلـبُ إذا مـا خفقـا ... شررًا منـه منـيرًا مُحْرِقـا
فهـو نـورٌ وهـو نـارٌ يَلْـذَعُ ... يوضـح الـنَّهج وفيـه يَـدْفعُ
فأوْمُـلْ لخـيرٍ وصـابرْ لا تمـلّ ... إنَّـما الـدُّنيا رجـاءٌ وَعَمَـل
وقـضاءُ الله عـونُ الآملـين ... وهـو في عَـوْنِ الأبـاةِ العـاملين
لا يـردُّ الله قلبًـا آمـلا ... لا يـردُّ الله عبـدًا عـاملا
ربَّ عبـدٍ مخلـصٍ قـدْ أقـسما ... فـأبرَّ اللهُ مِنْـهُ القـسما [1]
وجهـادُ العبـد أولى أن يُـبر ... إنَّـه الفعـلُ عـلى القـولِ أبـرّ
إنَّ عـزمَ الحـرِّ فيـه قَـسَمُ ... مُـضْمَرٌ يَعْلَمُـه مَـنْ يَعْلَـمُ
قـد تـولَّى اللهَ هـذا المقْـسِمُ ... فـدعاه في يقـينٍ يقـسم [2]

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر: «ربَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره».
(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٤).

المعراج[١]:

□ يقول إقبال:

وذَرَّةٍ طـار فيهـا الـشَّوقُ صـاعدةً ... تُغيرُ في عَرَصات الشَّمسِ والقمـرِ

يا رِفْقةَ المَرج! تلقى الصقرَ مُقدمـةً ... دُرّاجـةٌ تمـلأ الأنفـاسَ مـن شرَر

المـسلمُ الـسَّهم، والأفـلاكُ غايتُـه ... سرائرُ الرُّوح في المعراج فـادَّكر[٢]

جهلتَ ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ أسرارًا فلا عجبٌ ... ما زال مَدُّك محتاجًـا إلى القمـر[٣]

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا طغـى الـيمُّ فهيَّـا أقـدمْ ... مـا حـاجتي مَلّاحـه والـسُّفُن

لقـد محـا سـحرَك تكبـيري فهـل ... تَقْوى على جحـوده يـا وَهِـن؟[٤]

المؤمن عالي الهمة:

□ قال عنه إقبال:

إنَّ للمـؤمن العجيـب الـشانِ ... كـلَّ حـينٍ جديـدَ شـانٍ وآنِ

---

(١) الذرة التي يملؤها الشوق تعلو علىٰ الشمس والقمر، والدُّرَّاجة إذا ملأ صدرها الحماس قاتلت الصقر، فإنما القوة الحق قوة الروح، لا شيءٍ يستعصي عليها.

(٢) يريد أن في المعراج سرُّ الروح. وهو رمز إلىٰ أنَّ المسلم سهمٌ هدفه الفلك.

(٣) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم، التي يذكر فيها الوحي، وتقريب الرسول إلىٰ ربه. وليس جهلك عجيبًا، فإن نفسك لم تكمل، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه، كما يحتاج البحر إلىٰ القمر في مدِّه «ديوان إقبال» (٢/ ٢٤).

(٤) «ديوان إقبال» (٢/ ٤١).

هـو في قولـه السَّديدِ وفي الفعـل ... عـلى الله واضـحُ البرهـانِ
فيـه قدسـيَّةٌ إلى جـبروتٍ ... ومـن القهـرِ فيـه والغفـرانِ
إنْ تُؤلَّـف هـذي العنـاصرُ كـان ... المـسلمُ المـستعلي عـلى الحِـدْثان
هـو تُـربٌ سـما يجـاورُ جبريـلَ ... ويـأبى الحلـول في الأوطـان
لـست تـدري بـسرِّه فـتراه ... قارئًـا وهـو صـورةُ القـرآن
فيـه عـزمٌ عـلى القـضاءِ دليـلٌ ... وهـو في العَـالَمين كـالميزان[1]
هـو بَـرد النَّـدى بقلـب شـقيقٍ ... وبقلـب البحـار كالطُّوفـان[2]
ليلـه والنهـار لحـنُ حيـاةٍ ... في انـسجام كـسورةِ الـرَّحمن[3]

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

يبلـغُ المنـزلَ سـارٍ لا ينـامْ ... مُـسرجٌ عـينَ هِزبْـرٍ في الظـلامْ
إنَّـما للعبـدِ تُمنَـى راحـةٌ ... لـيس للحـرِّ عـلى الأرض حمـامْ

□ ويقول عن الرجل العظيم:

هـو في الحـبِّ عميـقٌ ... وهـو في الـبُغْض عميـقْ
وهـو في المَجْمَـع خـالٍ ... ومِـن الحـشْرِ طليـقْ

---

(١) يقول إقبال في مواضع كثيرة: إنَّ عزم المؤمن من القدر أو هو مشير علىٰ القضاء والقدر، وإنَّ رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة. وهنا يقول: إنَّ ميزان الأعمال في الدارين الدنيا والآخرة.

(٢) هو تارةً كالنَّدىٰ يبرد قلب الشقائق، وتارةً كالموج الهائج في البحر.

(٣) «ديوان إقبال» (٢/ ٥٣).

مثـــلُ شـــمع الحفـــل؛ في الحفـــل وحيـــد ورفيـــقْ [١]

مثلُ شمس الـصُّبح؛ فِكـرٌ فيـــه نُـــورٌ وبَريـــقْ

لفظـــه حـــرٌّ يـــسيرُ لكـــنِ المعنـــى دقيـــقْ

نظـــرٌ فيـــه ســـديدٌ عن بني العصر سحيقْ [٢]

□ويقول:

لـن يكـونَ الـشَّاهينُ عبـدَ بُغَـاثٍ ألحفظِ الأبـدانِ رُوحـي أُبـيرُ؟ [٣]

□وعن علوِّ همّة الزاهد في الدنيا يقول:

تُـذلُّ الحـوائجُ صـيدَ الرِّجـال تـرى الليـث كالثَّعلـب المحتقَـر

إنِ الـــذَّاتُ أيَّـــدها فَقْرُهـــا فعنـدي وعنـدك مُلـك البَـشرْ

قِـوامُ الـشُّعوب بحُـرٍّ فقـيرٍ إلى سُـدّة المُلـك مـا إنْ نظـر [٤]

□ويقول لصريع الفرنجة دنيِّ الهمَّة:

مِـنْ تجـلّى الفـرنج نلـتَ وجـودًا فهـمُ منـك هـيكلًا قـد أقـاموا

ومن (الذات) هيكل التُّرْب خـالٍ أنـت غِمـدٌ مُـذَهَّب لا حـسامُ

ووجـودُ الإلـه عنـدك ريـبٌ وأرى الريـبَ في وجـودك أنتـا

---

(١) يكون في جمعٍ من الناسِ كأنه وحده، له فكره ونظره. مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين، ووحيدة بحرقتها ونورها.

(٢)«ديوان إقبال» (٢/ ١٠٣).

(٣)«ديوان إقبال» (٢/ ١٢٥).

(٤)المصدر السابق (٢/ ١٢٦).

إنَّما الكونُ جوهرُ (الذات) يُجْلَى فانظرنْ أيَّ جوهرٍ قد دفنتا [١]

□ ويقول عنه أيضًا:

بلا دينٍ ولا تينٍ هوَتْ في الفخِّ رجلاه [٢]

دواءُ العاجزِ المغلوبِ «لا غلّابَ إلا هُو»

وصيَّادُ المعاني ما رَجَتْ في الغَرب عيناه

فضاءٌ مونِقٌ لكنْ غزالُ المِسك خَلَّاه [٣]

يقوِّم ذاتَه سحَرًا بدَمع العَيْنِ أوّاهْ [٤]

فهذا الزَّهْر أحسَنُه على الأمواهِ تلقاهُ

وديرُ الكون، زُونُ الرِّيـ ـح والألوانِ معناهُ [٥]

على الكُفار مُستوْلٍ وذو الإيمان مولاه [٦]

□ أمَّا عالي الهمة عنده فهو:

كالعقاب صَيْدُه للنَّيِّرَيْن في السماء طوفه بالخافِقَيْن [٧]

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٦).

(٢) يشير إلى مصطفى كمال واتِّباعه سياسةً لا دينيةً، واتِّخاذه الحروف اللاتينية للغة التُّركية.

(٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزالاً مسكيًا يصيده فإنما هي فضاءٌ لا صيد فيه. أي: لا يجد المعاني الجميلة التي يحبُّها.

(٤) الأواه: المتعبِّد، الرقيق، كثيرُ الدعاء.

(٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنامٍ من الألوان والروائح، يستعبد الكفرَ، ولكنَّه مسخرٌ للمؤمن.

(٦) «ديوان إقبال» (٢/ ١٢٩).

(٧) المصدر السابق (٢/ ١٦٢). والنَّيِّرَان: الشمس والقمر. والخافقان: المشرق والمغربُ.

□ وعن عالي الهمة يقول:

قد عَلَا منزلة الشمس مقامًا ضاربًا في مسبح النجم خيامَا

□ ويقولُ عن عالي الهمَّة مشرقِ الإيمانِ قدسيِّ الضمير:

لا تحاولْ درْكَ المعَالي بكاووسَ وخسرو في غابرِ الأزمانِ
طُفْ إذا شئتَ حَوْلَ ذاتِ: حرًّا لا تَطُفْ بالسَّرير والإيوان
قَدْ تباعَدْتَ عن مَقامِك حتَّى صِرْتَ في ذِلَّةِ الأسير العَاني
لا تَسِرْ واهنَ الخُطى كبغاثِ الطير بين الطُّلولِ والجُدْران
كُنْ نَظِيْرَ الشَّاهين في القِمَم الشَّمَّاءِ لا في مسارِب الوُدْيَان
تتحرَّى الطيورُ عِنْدَ بناء العُشِّ أعلى الفروع في البُسْتان
لَسْتَ دونَ النُّسور بأسًا فحاولْ دارةَ النَّجْم أو ذُرى كِيوان
مِنْ مِهادِ الثَّرى إلى التِّسْعةِ الأفلاكِ فَوْقَ الزَّمان فَوْقَ المَكَان
غَيِّرِ العالمَ القديمَ وعَمِّر فيه دُنيا جديدةَ البُنْيان
والذي يَنْشُد الجِهاد فناءً في رضا الحقِّ وهو ماضي الجَنانِ
هو سرُّ الأقدارِ وهو قضاءُ الحقِّ في المُمْكناتِ والإمكانِ
فَتَمثَّلْ نضالَ أسلافِك الأمجادِ نَحْوَ العُلى بغيرِ تَوَاني
وتَدَبَّرْ كيف استهانوا ببَذْلِ الرُّوح والمالِ في رضا الرَّحمن
أظْهِرِ الجَوْهَرَ الكريمَ مِنَ الأصداف واجْعَلْهُ باديًا لِلْعيَان
وتَحَرَّرْ منْ هيكل الماءِ والطِّين وَمِنْ ظُلمةِ الهوى والهَوان
واجعلِ الفطرةَ النقيَّةَ نبراسًا لعينيكَ بَيْنَ قاص ودان

كـلُّ مـنْ ضـاعَ حظُّـه مـنْ جـلالِ الحـقِّ بَـيْنَ الجُحـودِ والنِّـسيان
لَم ينَـلْ طُـوْلَ عُمْـرِه مـنْ جمـالِ الحـقِّ غَـيْرَ الإبعـادِ والحِرْمـان
مبـدأ العِـشْقِ والـصَّبابة قَهْـرٌ وخطـوبٌ موصـولةُ الأشـجان [1]
وهـو مـنْ بعـدها دلالٌ وتيـهٌ بـين طيـبِ المثنـى وَصَـفْوِ الأمـاني
ويعـودُ المحـبُّ بـالقُرْبِ محبوبًـا وَيَنْـسى لـواعجَ الهِجْـران
الوجـودُ الأسـمى هـو المـؤمنُ الحـرُّ الأبيُّ الـوفيُّ في كـلِّ آنِ
وبقايـا الوجـودِ فـيما سِـوَاهُ مَظْهَـرٌ حائـلٌ وظـلٌّ فـانِ
حِـيْنَ يَـدْعُو أنْ لا إلـه سـوى الله القـديرِ المهـيمنِ الـدَّيَّان
يُـذْعنُ الكَـوْنُ والمكـانُ ولا يُـشْرِقُ إلَّا بفـوزِه القَمَـرانِ [2]

□ويقول عن العرب المسلمين عُلاةِ الهِمَم:

يا لها مـنْ ذِكـرى لأمجـادِ العَـرَبْ آيـةٌ كُـبْرَى وتـاريخٌ عَجَـبْ
حـرَّروا أقـدارَهم بالعَزَمـاتِ في جميع الكَوْنِ مـنْ كـلِّ الجهـاتِ
فازْدَهى مـنْ نـورهم كـلُّ مكـانٍ وتغنَّـى باسـمِهم كـلُّ زمـانِ
لمْ تَـدُمْ عُـزَّى [3] ولم تَبْـقَ منـاةُ [4] هَـوَتِ الأصـنامُ تَحْـتَ الـضَّرباتِ

---

(١) الأشجان: الهموم والأحزان.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٥٠- ٣٥١).

(٣) عُزَّى: صنم كان لبني كنانة وقريش، أو شجرة من السَّمُر كانت لغطفان بنوا عليها بيْتًا وجعلوا يعبدونها، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه فهدم البيت وأحرق السَّمُرَة..

(٤) أحد أصنام العرب في الجاهلية.

حِيْنَ نادى المؤمنون (الله أكبر) زالَ كِسْرى وانْطَوَتْ أعلامُ قَيْصَر
أيُّ سيل هادرٍ عمَّ الصَّحارى أيُّ طوفانٍ جرى يغزو البحارَ
هؤلاءِ العَرَبُ الصِّيدُ الأباه وحَّدوا الخَلْقَ بتوحيدِ الإله
شعلةٌ مِنْ نورها الحقُّ أضاء منْ تحدَّى نارَها أضحى هَبَاء
قد أبادوا كلَّ شيطانٍ مريد وأزالوا كلَّ جبارٍ عنيد
وسَمَوْا فوقَ الدَّراري منزلا كلُّ هذا كانَ منْ أنوارِ (لا)[1]
بينما العالمُ كالعَظْم الرَّميم في سهوبِ الأرضِ أو دَيْرٍ قَدِيم
أنشؤوا دنياه في خلقٍ جَدِيْدْ وأقاموها على النَّهْج الرَّشيد
أيقظوا الدُّنيا بتكبير الأذان فجرى الحقُّ على كلِّ لِسان
كلُّ خيرٍ يُرتجى منْ غَرْسِهم كلُّ نورٍ يُجْتَلى منْ شَمْسِهم
كلُّ روض بالمعالي مُخْصبُ فهوَ منْ شاطئ نَهْرِ العَرَب
قد أزالَ العُرْبُ من لوح القُلوب نَقْشَ غير (الله)، علَّام الغُيوب
فأقاموا في شَمَالٍ وجنوب ثورةَ الإيمانِ في كلِّ الشُّعوب
فترى في أُمم الغَرْب العبيد حطَّموا القَيْدَ بعزم منْ حَدِيْد
أعلنُوا الحربَ على ساداتهمْ واستردُّوا أمْنَ حرِّيَّاتِهِمْ

يا مقيمًا في زوايا الحُجُرات يَحْشُدُ الألفاظَ حَشْدَ المَكْتَبات
إنْ تكنْ في مثل نيران الخليل أَسْمِعِ النّمرُودَ تَوْحِيْدَ الجليل

(١) لا: أي لا إله إلا الله.

والـذي تبـصرُه حـولَ الفَـضاء ... لا يـساوي قَـدْرُه وزنَ الهَبَـاء
كـلُّ حـرٍّ في يديـه سـيفُ (لا)[1] ... ثـمَّ لا يَقْبَـلُ عَنْـهُ حِـوَلا
فهـو للعليـاء دومًـا في صُـعُود ... أمـرُه النَّافـذُ في كـلِّ الوجـود
أيهـا الـشادي بقـرآنِ كـريم ... وهـو في عُزْلتِـهِ نـاءٍ مُقـيم
قـمْ واسْـمِعْه لكـلِّ العـالمين ... قُـمْ وأَبْلِغْـه البَرايـا أجمعـين[2]

عِـشْ ولـو يومًـا عزيـزَ المَطْلَـبِ ... أجنبيًـا عـنْ طريـقِ الأجْنَبـي
مَنْزِلُ الـشَّاهينِ في أوج الـسَّحاب ... مـا لَـهُ يَـسْكُنْ في وَكْـرِ الغُـرَاب
لم يَـزَلْ في الـرَّوض ظـلٌّ وَثَمَـر ... فـالتَمِسْ عُـشَّك في أعـلى الـشَّجَر
كُنْ كحدِّ السَّيفِ في صِدْقِ المَضاء ... واحْتَسبْ نَفْسَكَ في كفِّ القَضاء
إنَّ في رُوحـك سـيلًا كالعُبـاب ... يَنْـسفُ الـشُّمَّ ويهـوي بالهِـضاب
انـدفاعُ الـسَّيْل إثبـاتُ البَقَـاء ... وسـكونُ اللَّيْـل معنـاهُ الفَنَـاء
أنـا لمْ أسـلُكْ إلى الفِقْـهِ سـبيلا ... أتحـرَّى الحُكْـمَ فيـه والـدَّليلا
لم أكـنْ في الفَقْـرِ ذا فهـم دَقِيْـق ... في سـلوكٍ بـين رُوَّادِ الطَّريـق
فكرةٌ جاشَ بهـا القلـبُ اضْـطرابا ... ثمَّ لمْ أمْلِكْ عـن القَـوْلِ احْتِجَاجـا
كُنْـتُ في الـدِّين حَدِيْـدَ البَـصَر ... رَغْـمَ مـا بي مـنْ قـصورِ النَّظـر
وانجلـت واحـدةٌ بَـيْنَ مئـات ... بَعْـدَ لأي مـن ألـوفِ المُشكِلات

---

(١) لا: أي لا إله إلا الله.
(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٥٦- ٣٥٨).

فـاغْتَنِمْ مـنْ فـاقتي حظًّـا يـسيرا ... فَعَـسَى ألا تـرى مِـثْلي فَقِـيرا
أيهـا الـشَّادي بقـرآنٍ كـريم ... وهـو في ركـن مـن البيـتِ مُقِـيْم
قُـمْ وأبْلِـغْ نـورَه للعـالمين ... قُـمْ وأسـمعه البَرايـا أجمعـين
إنْ تكُـنْ في مِثْـلِ نِـيرانِ الخَليـل ... أسْـمَعَ النَّمـرودَ توْحِيْـدَ الجَليـل
منْ لـهُ مـنْ ثـروة الهـادي نَـصيب ... فَهْوَ مـنْ جبريـلَ في الـدُّنيا قَريـب
يـا غريبًـا عَـنْ مقـام المُـصْطفى ... عُدْ إلى الحـقّ تَجِـدْ نُـوْرَ الـصَّفا [1]

□ وعن الرجل الحرِّ من كل قيود الأرض، عالي الهمة يقول:

فَوْقَ مسرى الـنَّجْمِ للحـرِّ هَـدَفْ ... وِرْدَهُ في كـلِّ حـينٍ لا تَخَـفْ
آمِـنٌ في سِـلْمِه في حَرْبِـه ... رأسُـه في الكـفِّ لا في جَيبِـه
عَـرَفَ اللهَ فَلَـمْ يَرْهَـبْ سِـواه ... كيفَ يخشى الخَلْقَ منْ خافَ الإلـه
لا يـرى قـطُّ مَـعَ البُـؤْسِ المريـر ... عَبْـدَ سـلطانٍ ولا ظِـلَّ أمِـيْر
جَمَـلٌ في البِيْـدِ موصـولَ الـصِّيام ... يَحْمِـلُ الأثقـالَ والـشَّوْكَ طَعـام
هُـوَ نَـبْضٌ في عُـروقِ الأمَـلِ ... وهـو سَـعْيٌ في طريـق العَمَـلِ
مـنْ عـلا تكبـيرُه مِـنْ غـير تَـاج ... يُلْـزِمُ التيجـان تقـديمَ الخَـراج
قَـدْ ذَكَـتْ نيرانُنـا مِـنْ جَمْـرِه ... وَجَـرَتْ أنهارُنـا مِـنْ خَمْـرِه
جنَّـةُ الـوَرْدِ شـذًا مـنْ سِـحْرِهِ ... شـعلةُ المَجْـدِ سـنًا مـنْ فكـره

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٦٢).

وتـــرى في قـــصرهِ ربَّ الـــسَّرير ... راعـشًا مـنْ سَـهْمِ عُرْيـانٍ فَقِـيْر
شـأْنُنا في الـدِّين لا يعـدو الخَـبَرْ ... وهـــو في الـــدِّين شُـــهودٌ ونَظَـــرْ
نَحْنَ عند الباب نستجدي الأماني ... وهـو في الـدَّار وفي طِيْـبِ المَجَـاني
أَصْـــبَحَ الـــدَّيرُ لـــدينا مَقْـــصدا ... نحـــنُ لِلْغَـــيْر نبيـــعُ المَـــسْجِدا
وهو يُـسْقَى مـنْ يمـينِ المُـصْطفى ... كـــوثرًا عَـــذْبًا بـــه الـــوردُ صَـــفا
في ضـــميرِ الحـــرِّ تكبـــيرُ الإلـــه ... في جبـــينِ الحـــرِّ تقـــديرُ الأُمـــم
نحـــنُ للإفـــرنج أَسْـــلَمْنا القِيـــادا ... واتخـــذناهُم لـــدى الجُـــلَّى عَتَـــادا
وابتغينـــــا عنـــــدهم عِزَّتنـــــا ... وجعلنـــــا ودَّهـــــم قِبْلتنـــــا
وشـــعارُ الحـــرِّ عـــزمٌ وإبـــاء ... رزقُـــه مِـــنْ يـــدِ جبَّـــار الـــسَّماء
فلغـــير الله مـــا مَـــدَّ اليمـــين ... لغـــير الله لم يَحْـــنِ الجَبـــين
متعـــةُ الـــدُّنيا لنـــا كـــلُّ المَـــرام ... ثـــمَّ يـــأسٌ ثُـــمَّ قَـــبْرٌ وظـــلام
هـــو في الحـــقِّ جهـــادٌ وثبـــات ... موتـــه إحـــدى مقامـــاتِ الحَيـــاة
إنَّـــنا نبنـــي قـــصورًا في الخيـــال ... ونـــرى المُمْكـــنَ في حُكْـــمِ المُحـــال
وهـــو بـــالأعمال في كـــلِّ مجـــال ... لا يُـضيعُ العمـرَ في زَيْـفِ الخَيـال
لـــو رمـــى شُـــمَّ الجبـــالِ العاتيـــه ... حـــوَّل الـــصَّخْرَ بحـــارًا جاريـــه
اجتنـــبْ صُـــحْبَتَنا واسْـــعَدْ بـــه ... إنْ تُـــرِدْ خـــيرًا فكـــنْ مـــن صَـــحْبِه
الـــزَمِ الحـــرَّ ودعْ أهـــل البَـــوَار ... اهـــدمِ الـــدَّارَ وكـــنْ صـــاحبَ دار

صحبةُ الحرِّ إلى العلياءِ باب ... هي خيرٌ لكَ منْ ألفِ كِتَاب
صحبةُ الحرِّ تنيرُ العالم ... وَلَقَدْ تَخَلَّق مِنْهُ آدم
قُرْبُه للعزِّ أصفى مَنْهَلِ ... لكَ في البَحْر غنىً عنْ جَدْوَلِ
هُوَ يَوْمَ السِّلْم في أوطانه ... آيةُ التغييرِ في عُمرَانه
بجديد الفِكْرِ يحي عَصْرَهُ ... مِثْلَما يَنْشُر رَوْضٌ عِطْرَهُ
وَهْوَ يومَ الحَرْبِ في مَيْدانها ... ثورةُ البُركان في نِيرانها
سيفُه يحفِرُ فيها قَبْرَه ... أو يتمُّ اللهُ فيها نَصْرَهُ
ليسَ زَرْعُ القلبِ في ماءٍ وطين ... هينًا إلَّا لأصحابِ اليقين
إنْ أردْتَ العَيشَ حُرًّا صافيا ... فالتزمْ في الدَّهر حرًّا هاديا[1]

□ وقد أعاد صياغتها الشيخ الشاعر الصاوي شعلان في رباعيَّاتٍ فقال:

أقْبَلَ الحرُّ على يومِ الفِداء ... ومضى يرمي على النَّجْمِ الهَدَفْ
وكأنَّ الوَحْيَ لَقَّاءُ النِّداء ... منْ سماءِ الله أقدِمْ لا تَخَفْ

أشْرَقَ التوحيدُ نورًا في هداه ... وسرى التحريرُ مِنْه في الضَّمير
أتُرى منْ لم يَخَفْ غيرَ الإله ... يَرْهَبُ السُّلطان أو يَخشى الأمير

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٦٣- ٣٦٤).

روحُـه تكـشفُ أسرارَ الخُلـود عن حياةٍ مـا لهـا في الـدَّهْرِ مَـوْت
يرسلُ التكبيرَ مِـنْ قلـبِ الوُجـود لغـةٌ تُغْنيـه عـن حَـرْفٍ وَصَـوْت

سلْ ملوكَ الأرضِ عن دُنيا الغُـرور في الملاهـي خَلْـفَ أستـارِ الحريـر
زَلْـزَلَتْهُمْ بـين أبـراج القُـصور ضربـةٌ مِـنْ سَـهْم عُريـانٍ فقـير

ضَرَبَ البَحْـرَ كموسـى بعـصاه ورمى الصَّخْرَ حُطامًا مِـنْ زجـاج
ذلـك الأوَّابُ في ثـوبِ تقـاه ألـزمَ التِّيجـان تقـديمَ الخَـرَاج

قَـدْ جَـرَتْ أنهارُنـا مِـنْ بَحْـرِه وأضـاءتْ نارُنـا مـنْ خمـره
بـسمةُ الـوَرْدِ شـذا مِـنْ عِطْـرِهِ شـعلةُ المَجْـدِ سـنا مِـنْ فِكْـرِه

شـأْنُنا في الـدِّين لا يعـدو الخَـبَرْ وهـو في الـدِّين شـهودٌ ونَظَـرْ
نحنُ عند الباب في ظـلِّ الشَّجَرْ وهـو في الـدَّار وفي جَنْـى الثَّمَـرْ

لبنـي الإفـرنج في الـدُّنيا عَبِيْـد في قيـودٍ مـن حريـرٍ أو حَدِيْـد
كـمْ تغنَّـى بمزايـا بايزيـد ذو ريـاءٍ وهـو للـوردِ مُرِيْـد

في حديثِ المُصْطفى شمسُ الهُدى كـلُّ أرضٍ مَـسْجدٌ للمـؤمنين
كيـف تبنـي فـوق أرضٍ مـسجدًا إنْ تركـت الأرض للمُـستَعْمِرين

لَـيْس حُـرًّا مَـنْ يُـرَى مُـسْتَعْبَدًا ... لِـسَوى مَـنْ في يديـه رزْقُـهُ
سَـيِّد مَـنْ لـيس يـرضى سـيِّدًا ... مـا خَـلَا ربِّي فَكُـلٌّ عَبْـدُه

في ضـمير الحُـرِّ تكبـير الإلـه ... في جبـين الحُـرِّ تقـديرُ الأُمـم
مَوْتُـهُ أعـلى مقامـاتِ الحيـاه ... تَرْفَـعُ الـدنيا لـذكراهُ العَلَـم

هـو يـوم الـسِّلْم في نَهْـضتِه ... بيَـدِ الإصـلاح يَبْنِـي عَـصْرَهُ
ويُـذِيع الخـيْرَ في أُمَّتِـه ... مِـثْلَمَا يَنْـشُر روضٌ عِطْـرَه

وَهْـوَ يـومَ الحَـرْب في سَـاحَتِهِ ... سـيفُه يَحْفِـرُ فيهـا قَـبْرَه
يتحـدَّى المـوتَ في وَثْبَتِـهِ ... أوْ يُـتمُّ العَـزْمُ فيهـا نـصرَه

إنَّ غَـرْسَ الحـقِّ في نـورِ القُلـوب ... غَـيْرُ شـأنِ الـزَّرع في مـاءٍ وطـينْ
فالتَمِسْ للمجْدِ أحرارَ الـشُّعوب ... إنهـم في الـدهرِ أعـلامُ اليقـينْ [1]

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأيـة أمـة ترجـو الأمـاني ... بـلا جَهْـدٍ وتمـضي في رُكـودِ [2]

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٤- ٣٦٦).
(٢) الرُّكود: الهدوء والسكون.

يكـونُ مـصيرُها عَـدَمًا ومَحْـوًا وينـسى نَقْـشَها سِـفْرُ الوجـود

□ ويقول عن القلب عالي الهمة:

فيـا مَـنْ هـامَ بالـدُّنيا متاعًـا وأصـبحَ همُّـه شـبعًا وريًّـا[1]

تَطْلُـبُ في حُـضُورِ الحـقِّ قلبًـا وفيًّـا صـادقَ الإيـمانِ حيًّـا

فهـذا القلـبُ للـدُّنيا سراجٌ لـه أمـمُ الخليقـةِ في انتظـار

وهـذا القلـبُ مَعْدِنُـه تـرابٌ وَجَـوْهَرُه فريـدٌ في الـدَّراري[2]

يفـوقُ الـسَّبْعَةَ الأفـلاكَ قَـدْرًا بِهِمَّتِـه ولا يـألو رُقِيًّـا

يقـيمُ عـلى الثَّـرى ولـه أمـانٌ إلى العليـاء أدناهـا الثُّرَيَّـا[3]

وفي حرب ضروس[4] كـلَّ حـينٍ مـع التَّـاريخ مُتَّـصل النِّـضالِ

بِـضَرْبَتِهِ الجبـالُ تـصيرُ عِهْنًـا وَتُرْهِبُـه الـضراغِمُ في الجِبَـالِ

تـرى لِـشعورِه المـشبوب نـارًا تُوْقَـدُ مِـنْ حرارَتهـا ذُكـاءُ

لـه ممَّـا سـوى التنـورِ خبـزٌ ومِـنْ غَـيْرِ الطَّعـام لـه غَـذَاءُ

---

(١) ريًّا: مصدر رَوِيَ، أي: شَرِب.

(٢) الدراري، جمْع الدُّرِّيّ: نسبة إلى الدُّر في حُسنِه وبهائه.

(٣) الثُّرَيَّا: مجموعة النجوم.

(٤) حرب ضروس، أي: شديدة مُهْلِكَة.

حـضورُ الحـقِّ يملـؤه يقينًـا فمنـه الخـوفُ مَحْـضًا والرَّجـاء
شـهودُ الحـقِّ إنْ هُـوَ غـابَ عنـه فلـيسَ لـه عـلى الـدُّنيا بَقَـاءُ

طيـف الجلـواتِ والخلـوات طُـرًّا يـضيء الكـونَ بـالرأي المُنـيرِ
ومـا للعِـشْق في سُـكْرٍ وَصَـحْوٍ دليـلٌ غَـيْرَ أواب فَقِـيْرِ

فـصاحبْ مـنْ لـه قلـبٌ عظـيمٌ لعلَّـك تـدركُ الأمـرَ العظـيما
وُلِـدْتَ عـلى مهـاد الـذُّل عبـدًا فجاهـدْ ثـمَّ مُـتْ حُـرًا كـريمًا [1]

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَدْ بَلَوْتُ الـرِّقَّ [2] مُنْـذُ الابتـدِاء لَمْ يكـنْ مهـدي في أرضِ الحَـرَم
مِنْ رسولِ الله يَعْـروني الحَيَـاء [3] حِـيْنَ يَـدْعُو باسـمِه الغـالي فَمِـي

لـكَ قلـبٌ ومـع القَلْـبِ ضـمير أمْ غدا صـدرُك للأصـنام دَيْـرا [4]
أنْـتَ للغَاصـبَ محكـومٌ أسـير تَحْتَ حُكْم الغَيْرِ لـن تَـصْنَعَ خَـيْرا

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٧٢- ٣٧٣).
(٢) الرِّق: العُبوديَّة.
(٣) يعروني الحياءُ: يُصيبني الحياءُ.
(٤) دَيْرًا، مصدر من دَارَ يدورُ، أي: طَافَ حولَه.

تـــدَّعي الحُـــبَّ لخـــير الأنبيـــاء أكْـذَبُ الأقـوالِ مـا لَمْ يَبْـدُ فِعْـلا
وإذ لَمْ يَتبَـــع القـــولَ اقتـــداء لَمْ يكـن لِلْحُـبِّ أوْ لِلْقُـرْبِ أهـلا

لَـــذَّة الإيـــمانِ عنـــد المـــؤمنين قَـــلَّ أنْ يُـــدْرِكَها عبـــدٌ ذَليـــل
مـــسلمٌ مُسْتَـــسْلمٌ للطَّـــامعين آزريٌّ [1] حـادَ عـن ديـن الخَليـل

صـلواتُ الحـرِّ بعـثٌ للـشُّعور فهـي مِعْـراجٌ إلى العَـيْشِ الكَـريم
وصـلاةُ المَـرْءِ في غـير حُـضُور عـادةٌ جوفـاءُ في رسـم قَـدِيْم

إنَّ للأحـرار في العِيْـدِ الـسَّعيد مَظْهَـرُ العِـزَّة في دُنيـا وَدِيـن
ولدى الأسرى وفي عـيشِ العَبِيْـد يُـصْبحُ العِيْـدُ هَجْـوَ المُـؤْمنين

إلى الأمة العربية الإسلامية:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيتها الأمةُ العربية! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود، مَنِ الذي سَمِعَ العالم منه نداء «لا قيصر ولا كسرى» لأول مرة في التاريخ، ومنِ الذي أكرمه الله بالسَّبْقِ إلى قراءة القرآن؟ مَنِ الذي أطلعه على سرِّ التوحيد، فنادى بأعلى صوته: «لا إله إلا الله»، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم؟ هل العلم

---

(١) آزريٌّ: نسبة إلى آزر والد سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

والحكمة إلا فتاتُ مائدتكم، وهل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إلا وصف حالكم، إنَّ نَفَسَ ذلك الأمي أعاد على هذه الصحراء الخِصْبَ والنمو، فأنبتت الأزهار والرياحين، إنَّ الحرية نشأت في أحضانه، وإنَّ حاضرَ الشعوب ليس إلا وليد أمسِه، إنَّ الجسد البشري كان بلا قلبٍ وروح، فأعطاه القلب والرُّوح، وكشف اللثام عن جمال وجهه، إنَّه حطَّم كلَّ صنمٍ قديم، وأفاض الحياة على غصنٍ ذاوٍ من أغصان العلوم والمدنية، وأنجب أبطالًا وقادةً مؤمنين، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل، فتارةً يدوِّي الأذان في ساحة الحرب، وتارةً يتجلَّى الأذان بقراءة «الصافات» بين صليل السيوفِ وصهيلِ الخيول، إنَّ سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي مفتاحان كنوز الدُّنيا والآخرة.

إنَّ العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه، إنَّ العلم، والحكمة، والشرع، والدين، والملك والإدارة، ولوعة القلوب مقتبسةٌ من نوره، وليست «الحمراء» في غرناطة، وقصر «التاج» في آكره [1]، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار الفنانين الناقدين، وعظماء العباد الزَّاهدين، ليس إلا صدقةً من صدقات بعثته، ومظهرًا من مظاهر عبقرية أمته، إنَّ بعض مظاهره تجلَّى في سموِّ ذوق أمته، وسلامة تفكيرها، وجمال فنها، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبارُ العارفين.

لقد كان الإنسان حفنةً من تراب، وقبضةً من أشلاءٍ وعظام، لا يدري ما الكتاب، ولا الإيمان، فعرَّفه بالعلم والإيمان، وأذاقه لذة العبادة

---

(١) تاج محل الذي بناه جهانكير، ويُعدُّ اليوم من العجائب السبعة في العالم.

والإحسان، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء».

□ ثم يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيها العرب قد منَّ الله عليكم؛ إذْ جعلكم مثل السيف البتار أو أحَدَّ منه، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء، تركبون عليها، وتظعنون بها، ثم انعكست الآية، فسخر الله لكم المقادير، فضلًا عن الإبل، فأصبحتم من مالكي أعنَّتها، فلو أقسمتم على الله لأبرَّكم، وهنالك دوت تكبيراتُكم وصلواتُكم، وزمزمت جلبةُ حروبكم ومغازيكم بين الخافِقَيْن، فارتجَّ بها ما بين الشرق والغرب، فما أحسن تلكَ المُغامرات، وما أجملَ تلك الغزوات».

وبعدما يمدحُهم الشَّاعر، ويذكرُ حماسَتهم الإسلامية، وغضبتهم المضرية في الله ورسوله، ويبدي فرحَه وسروره، يقف برهة، يملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط، والإحجام بعد الإقدام، والفُرْقة بعد الوَحْدَة، والعبودية بعد السيادة، والاتباع بعد القيادة، ويقبل إليهم مخاطبًا معاتبًا، ويقول: «أسفًا على هذا الخمود والجمود، أيها العرب! ألا ترون إلى الأمم الأخرى، كيف تقدَّمت وسبقت! أما أنتم فما قَدَّرْتُم قَدْرَ هذه الصحراء التي نشأتم فيها، وهذه الحرية التي ورثتموها، كنتم أمَّةً واحدةً، أمَّةَ الإسلام، فصرتم اليوم أممًا، وكنتم حزبًا واحدًا، حزب الله، فأصبحتم أحزابًا، لقد فرقتم جمعَكم، ومزَّقتم شملكم، وانقسمتم على أنفسِكم.

□ اعلموا أيها السادة! أنَّ منْ ثار على شخصيته وكرامته، وفقد الثقة بنفسه مات، ومُحي من الوجود، ومن فرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء، وتطفَّل على مائدتهم، عوقب بالهوان والشَّقاء، والطَّرْد والجلاء،

ألا إنه لم يجنِ عدوٌّ على عدوٍّ مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم، ولم يُسئ أحدٌ إلى أحدٍ إساءتكم إلى أمَّتكم، إنكم آذيتم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم، فهي متألمةٌ متوجِّعةٌ شاكيةٌ مستغيثة».

□ الشاعر عارف بمكائد الإفرنج، وما لديهم من سهام مسمومة، وحبائلَ منصوبة، فيُرسل صيحته، يُنذر المسلمين من المصير المظلم المؤلم، ويقول: «مَهْلًا أيها الغافلون! إيَّاكم والرُّكونَ إلى الإفرنج، والاعتمادَ عليهم، ارفعوا رؤوسكم، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم، إلَّا أنه لا حيلة لكم ولا وزر إلَّا أن تطردوهم عن منهلكم، وتذودوهم عن حوضكم، إن حِكمْة الغرب قد أَسِرَت الأمم، وتركتها سليبة حزينة لا يتملك شيئًا، إنها مزَّقت وحدة العرب، واقتسمت تراثهم، إنَّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكَّر لهم كل شيءٍ، وقَسَا عليهم هذا الكون، ولم يَجِدُوا من يرثي لهم، ويرفُق بهم، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت وضاقت عليهم أنفسهم».

□ ثم يقول للعرب المسلمين: «إنَّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة، ولا تزال فيكم الشرارة كامنة، فقوموا أيها العرب! ورُّوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرَّة أخرى، إنَّ منبع القوة ومصدرها هو الدين، منه يستمد المؤمن العزم واليقين، وما دامت ضمائركم أمينة للسرِّ الإلهي، فيا عُمَّار البادية! أنتم الحُرَّاس للدِّين، وأمناء الله في العالمين.

إن غريزتكم العربية والإسلاميةِ ميزانٌ للخير ميزانٌ للخير والشر، وأنتم ورثة الأرض، إذا تألَّق نجمكم في آفاق السماء أَفَلَتْ نجوم الآخرين، وطُوِي بساطُهم، لن تسعهم الصحراء والفيافي، فاضروا

خيمتكم في وجودكم، الذي يَسَع الآفاق، كونوا أسرع من العاصفة، وأقوى من السَّيْل، حتى تُسْرِع ركائبكم في مضمار الحياة، وتَسْبِق الريح..

فيا رجلَ البادية وسيد الصحراء! عُد إلى قوَّتك وعزَّتك، وامتلك ناصيةِ الأيام، وخذ عِنان التاريخ، وخذ قافلة البشرية إلى الغاية المثلى».

فَكِّـروا في عَـصْرِكُمْ واسـتبقوا ... طالمـا كنـتم جمـالا الأعـصر

واملؤوا الصَّحْراء عزْمًا واخلقُـوا ... مَـرَّةً أخـرى بهـا رُوْحَ عُمَـر [1]

تمساحٌ يُعلِّم صغيره علوَّ الهِمَّة:

□ قال إقبال:

وللتمْـساح هَـذَاكَ الكَـلَامُ ... «لـزومُ الـشَّطِّ في دينـي حـرامُ»

عَـنِ الـشطِّ ابتعِـدْ، موجًـا تـسلَّقْ ... نَعِـش في بحرنـا وَبِـه نَنَـامُ

وهـذا البحْـرُ في صَـدْرِ حَمْلَتَـه ... وذا الطوفَـانُ في حَـرْبٍ غَلَبْتَـهْ

وَلَـوْ في بُرْهَـةٍ أَعْيَـا وأَغْفَـى ... لكـان مقـاتِلًا مَـا إن قَتَلْتَـهْ [2]

ثُر بهمّة قلبك:

□ قال إقبال:

وهذا القلـبُ بَحْـرٌ مِنْـكَ يَـسْكُنْ ... وَمِن جَـرَّاك [3] فيـه الـدُّرُّ يَكْمُـنْ

فثُر يا مـوجُ واحـذرْ مِـن سُـكُونٍ ... فهـذا البَحْـرُ دَارَا منـك يَحْـسُنْ

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٨٨).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٨٠).

(٣) مِن جَرَّاك: من أجلك.

إلى ذاتٍ لـك الـدَّارَيْن فاجْـذِبْ ... أَعَـنْ ذاتٍ تُـشرِّقُ أَوْ تُغَـرِّبْ

ويومَـكَ مـنهما نـورًا لتُبـصِرْ ... وهـذا النُّـورُ يومَـكَ لا تُجَنِّـبْ[١]

لا يبكي الرجال:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

مِـن التـبريحِ لا يبكـي الرجـالُ ... بـصَرْف الـدَّهْر يومًـا لم يُبَـالُوا[٢]

وقـد تبكـي ولكـنْ لـست مـنهم ... لدمْعٍ من لظـى الـشوق انهـالُ[٣]

ومَـن في محنـةٍ نَـسِي الفنـاءْ ... ولـوْ شـهدته في المـوت الـسماءْ[٤]

وأنـت بموتـه هـذا جـديرٌ ... وإلَّا فلتمـتْ موتًـا تـشاءْ

تُرابُـكَ وَهْـوَ عـن روحٍ غريـب ... غصونك ليس يرويها صـبيبُ[٥]

عليـك بحرقـةِ الأنفـاس واسـعد ... فمبـتهج بهـا الـصدر الكئيـب[٦]

القلب العَلِيُّ الهمة وارداته:

بِـلَا شَـطٍّ خِـضَمٍّ كـانَ قَلْبَـا ... يثـيرُ بهيبـة الأمـواجِ رُعْبَـا

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٤).

(٢) التبريح: مِنْ بَرَح به الأمرُ: إذا أجهده وآذاه.

(٣) انهمل الدمع: سال.

(٤) المحنة: بمعنى الامتحان والشدّة. وفي هذا احتمال التلويح إلى من يموتون من أجل عقيدة يعتقدونها.

(٥) الصَّبيب: المصبوب. والمقصود به هنا الماء.

(٦) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٥).

بِسَيْلِ مُغْرِقٍ سَهْبًا وسَهْبَا ... حبابٌ فيه بالأفلاكِ يعبَا؟ [١]

ويُنجح سعيُه دَهْرَ مُثَابِر ... بصونِ الذات عِمْلاقٌ يجاهِرْ

وصُنْ للقلبِ سُلطانًا وفقرًا ... فهذا البحرُ قد صان الجواهِرْ

قِوَي للذاتِ يومًا ما بَلَوْتَا ... وقَيْدًا بعد قيدٍ ما حَطَمْتَا

يدومُ العقلُ للإنسان قَيْدًا ... إذا في صدرِه القلبُ افتَقَدْتَا [٢]

الشاهين[٣]:

جزتُ في الأرض بلدةً بعد أخرى ... ثمْ ألْقَيْتُ كلَّ شيءٍ ورائي

ذلكَ العالمُ الذي زعموه ... ليس يقتاتُ غير حَبٍّ وماءِ

أنا نَجْلُ الصَّحراء والزُّهدُ ديني ... وهما في سجيَّتي ودمائي

أجْهَلُ الزَّهرَ والنَّسيم وما في ... لوعةِ العندليب عند المساء

ورجالُ البُستان تغري ولكنْ ... ليس تُغْري منشَّأَ في العَراء

أين مجدي إذا شقيتُ لجوع ... وأذلَّتْ حمامةٌ كبريائي

بافتراسي أصونُ عزَّة وجهي ... وأروِّي حماستي وإبائي

---

(١) الخصم: البحر. السهب: الأرض المنبسطة. والحباب: الفقاقيع التي تعلو الماء. والشاعر يريد ليقول: إن الأفلاك كلها لا تُساوي فقاعةً واحدة من إرادات القلب عالي الهمة وواراداته.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٧).

(٣) الشاهين: نوع من الصقور، وهو الطَّيْر المختار عند إقبال؛ لأنه لا يبني لنفسه عُشًّا يعني أنه زاهد، ويطير إلى الأعالي، وليس نجيلاً ويقنع بالزهيد، ولا يأكل مما يقنصه الآخرون.

كـلُّ طـيرٍ لـه مـن الأرض عـشٌّ ... وأنـا هـا هنـا حليـف مـضائي
كيـف يبنـي قلنـدر الطَّـير عـشًا ... وهو الفَـرْدُ في رحـابِ السَّماء [1]

النِّسْر والنَّملة:

قالـت النَّملـة للنِّـسر الـذي ... مـرَّ يومًـا مـا عـلى وادي النَّمـلْ
أنـت ترعـى في بـساتين النُّجـوم ... وأنـا في شـقوة العـيش المُـذِلْ
قـال: لكـن أنـا لا أبحـث عـن ... مـؤني مثلـك في هـذا الـتُّراب
لـستُ ألقـي نظـرةً حتَّـى ولا ... للسمواتِ التي فوق السَّحاب [2]

ودَنِيُّ الهمّة الذي يخوض في الدين ويُجادل في الكتاب:

□ قال إقبال:

ألا ترثـي لعُـصفورٍ ... عـن الطَّـيران قـد مُنعـا
إذا اسـتخفى وحـاول أنْ ... يطـيرَ لوَحْـدِه وقعـا
يحـاولُ أن يكـون ... فـؤادُه بيتًـا لجبريـل
ولـيس لـه مـن الطَّـيران غـير القَـال والقيـلِ
هـل العـصفورُ بـين الـشَّوك كالعـصفور في الجنَّـة
بربـك هـذه حريَّـةٌ في الفكـر أم جِنَّـه
فقـل لمفكِّـر حـرٍّ ... أضـلَّ الفكـرُ وجدانَـه
تعـالى الله أن يلهـمَ مـا يُبْطِـلُ قرآنـه

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٥٤٧).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٥٠).

وهـــل يهـــدم مجـــدَ الـــشَّعْب غـــير الفِكْـــرَة الحـــرَّه
وهـــذي الفكـــرة البلهـــاء ســـيِّدُها (أبـــو مـــرَّه)[1] [2]

الإيمان وعلو الهمّة:

منبـــعُ الحـــبِّ هـــو الله العـــلي ... هـــو مـــولى للبرايـــا وَوَلي
فأضـــيئوا الـــنفس مـــن إيمانهـــا ... وانظـــروا الآيـــاتِ مـــن إحـــسانها
املؤوا الأنفـس مـن نـور اليقـين ... وانظـروا إبـداعها في كـلِّ حـين
إنَّـــما الإنـــسان مـــن لحـــم ودم ... فيـــه قلـــبٌ كـــسراج في ظلـــم
ذلـــك اللحـــم إلى مـــاءٍ وطـــين ... ذلـــك النُّـــور لـــربِّ العـــالمين
فـــإذا أطفـــئ فيـــه ذا الـــضِّياء ... فهـو وحـشٌ همُّـه سـفكُ الـدِّماء
إنَّ هـــذا الجـــسمَ ذو وزنٍ وحـــد ... وبهـــذا القلـــب كـــونٌ لا يُحَـــدّ
هالكٌ مَنْ عاشَ في ضـيقِ الجسدْ ... منْ يعـشْ في وسـعة القلـب خَلَـدْ
أنت في جسمك مِـنْ طـينٍ ومـاء ... أو قـــوام فيـــه لحـــمٌ ودمـــاء
أنـــت في الـــروح حيـــاةٌ وطـــماح ... ورجـــاءٌ وجهـــادٌ وكفـــاح
أنـــت في قلبـــك سرُّ العـــالمين ... فيـــه أمـــرُ الله للخلـــقِ مبـــين
لا يحـــدُّ القلـــبَ في الآفـــاق حـــدّ ... إنَّـــه يكـــبرُ عـــن وزنٍ وعـــد
أيُّهـــا الغافـــلُ عـــن سرِّ الإلـــه ... انظـــرنْ في القلـــبِ يومًـــا لـــتراه

---

(١) أبو مرّة: هو إبليس.
(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٥٥٠).

ضـاق عـنْ أمـرِ الإلـه العـالمُ ... وحـواه القلـب، هـذا الخـاتمُ
كلُّ ما أدركـتَ مـنْ معنىً جميـل ... كلُّ مـا أبـصرتَ مِـنْ أمـرٍ جليـل
كـلُّ مـا أوعـاهُ تـاريخُ البـشر ... مـن جـلالٍ وجمـالٍ وعـبر
كـلُّ مـا سُـجِّلَ عـن أخيـاره ... كـلُّ مـا حُـدِّث عـن أبـراره
هـو نـورُ الله في القلـب الـصغير ... أو فُيوض الله في الكونِ الكبير [1]
هو نبضُ القلـبِ في الـدُّنيا انتـشر ... هـو خفـقُ القلـب يرمـي بالـشرر
إنَّـما الإيـمان بالـدُّنيا يـدور ... فهـو نـار في دجاهـا وهـو ثـور
فـاجعلوا مِنْـهُ تباشـيرَ المنـى ... واملـؤوا الآفـاقَ منـه بالـسَّنا
ارفعـوا الأنفـسَ فيـه صـاعده ... ارفعوهـا عـن معـانٍ خامـده
عـن متـاع وطعـام وشراب ... ومعـانٍ كلُّهـا نبـتُ الـتُّراب
قيمـة الإنـسان قلـبٌ لِلْعُـلى ... لا ربـاشٌ ومتـاعٌ للـبلى
كـلُّ سـاع قَـدْرُه بغيتُـه ... وزنُـه بـين الـورى مَنْبتُـهُ
أيُّهـا القـانع دودًا في تـراب ... حلِّقَـنْ في جوِّهـا مثـل العُقـاب
أيُّهـا الـسادرُ في لهـوٍ وَدَدْ ... مـنْ لهـذا الكـونِ في يـوم وغَـد
أنقذوا الإنـسان مـن هـذا الـرَّدى ... أبصر الإنسان يا قـومي هـوى [2]

---

(١) الكون الكبير: هو القلب.
(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٢- ٣٦٣).

أيها المسلم:

أيُّها المسلمُ يا مَنْ خُلقا ... ليكونَ الحقُّ فيه خُلُقا
انهضنْ يا صاح بالعبءِ الثَّقيل ... أنت في الأرض عن الله وكيل
قد قضى الخلَّاق بالأمر إليك ... قسم الأرزاق يومًا بيديك
سطِّرنْ بالحقِّ في هذي البلاد ... واحكمنْ بالعدلِ ما بينَ العباد
أنقذِ الإنسان من هذا الشَّقاء ... وأزل من أرضنا هذا العناء
املأ الأرض بحبٍّ وصفاء ... وسلام ووداد وإخاء
واحكمنْ بالحقِّ في أرجائها ... وانْعَمَنْ بالأمن في أفيائها
واملأ الآفاقَ حقًّا وسَنَا ... واملأنْ بالخيرِ آفاقَ الدُّنا
علِّم الإيمان والحقَّ العلي ... علِّم الإيثارَ والزهدَ الغني
زهدَ مَنْ يملك آلاف الألوف ... وهي في عينيه لغوٌ وزيوف
قولةٌ في الحقِّ أعلى عنده ... فعلةٌ في الخير أغلى عنده
كلُّ ما يمسكُ منها درهمُ ... كلُّ ما ينفق منها مغنمُ
هذهِ الأموالُ جمعًا يا بني ... لا تساوي ذلةَ الحرِّ الأبي
إنَّها اللعبةُ في عينِ الحكيم ... إنَّها الدِّرْهمْ في كفِّ الكريم
جَوهرًا يحسبُ من لا يعرفُ ... وهي عند العارفين الصَّدَفُ
إنَّما الجوهر قلبٌ قد أضاء ... وَسِعَ الأرضَ جميعًا والسَّماء
لا يعافُ الحرُّ أكلَ الطَّيبات ... آخذًا في الأرض كلَّ الثَّمرات
ربَّما استولى على أعدادها ... ربَّما أوفى على آمادها

آخـــذًا أو معطيًـــا لا يَـــشرَهُ ... رابحًـــا أو خـــاسرًا لا يأبـــه
عبَّـــد الـــدُّنيا ولا تـــستعبده ... فاكهًـــا في نعمـــةٍ ولا تفـــسده
حـــائمًا للـــرِّزقِ صـــقرًا طـــائرا ... لا يُريـــغُ الـــرزَّاق فيهـــا صـــاغرا
فـــإذا شِـــيْمَ هوانًـــا فزعـــا ... مثـــل مـــا يَفْـــزعُ مـــن قـــد لُـــسعا
واســـتمدَّ العـــزَّ مـــنْ همَّتـــه ... واســـتثار النـــار مِـــنْ عَزْمَتِـــه
فـــإذا المـــاءُ لهيـــبٌ ودُخـــان ... وإذا الحلـــمُ ضرابٌ وطِعـــان
وإذا سُـــدَّ عليـــه كـــلُّ بـــاب ... فـــارقَ الـــدُّنيا إلى غـــير إيـــاب
إنَّ مـــوتَ الحـــرِّ في ذلتـــه ... وحيـــاةَ الحـــرِّ في عزَّتـــه
فكُـــنِ الـــصَّقْر الأبيَّ العاليـــا ... وكُـــنِ الحُـــرَّ الكـــريمَ الآبيـــا[1]

الهَمَّام.. عالي الهِمَّة:

بـــيَّنَ الهَـــمَّامُ مـــنْ سرِّ الحيـــاه ... وأزالَ الـــسِّتر عـــن نـــورِ النجـــاه
بَـــيَّن الهَـــمَّامُ مـــنْ ســـير الزَّمـــان ... وأفاضَ النُّـــور مـــن هـــدي القُـــران
بـــثَّ في الـــنفس كلامًـــا مـــنْ شَرر ... منه عشقُ الحـــقِّ في القلـــبِ استعر
فتقـــتْ نظراتُـــه كـــلَّ حجـــاب ... فرأى الدَّوحـــة مـــن تحـــت الـــتُّراب
ضـــاقتِ الآفـــاقُ عـــن نظراتـــه ... ضـــجَّت الأفـــلاك مـــن أنَّاتـــه
وَصَـــلَتْهُ نفخـــةٌ مـــنْ ربِّـــه ... فـــتجلَّى نـــورُه في قلبـــه
قـــد ثـــوى في قلبـــه كـــلُّ الجهـــات ... واســـتوى في فكـــره مـــاضٍ وآت

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٤، ٣٦٥).

سـال في ألحانـه دمـعٌ ودمُ والتقـى المـاءُ عليهـا والـضَّرم

يـا بَـرودَ القلـبِ خـذْ مِـنْ نـارِه فالحيـاةُ الحـقُّ في أشـعاره

يا موتَ القلب خذْ من رجعه [1] يـا جمـودَ العـين خـذْ مـن دَمْعـه

يـا صـغيرَ الهـمِّ خُـذْ مـن همَّتـه يـا كليـلَ العَـزْم خُـذْ مـن عزمتـه

يـا أسـيرَ اليـأسِ خـذْ آمالـه في دجـى اليـأس أثِـرْ أقوالـه

أيُّهـا المـسلم صـعد في الـسماء وابلغـنْ في جوِّهـا أعـلى العـلاء

وخـذِ الإقـدامَ منـه والطِّـماح وجناحًـا قـاهرًا هُـوجَ الرِّيـاح

ذا ضياء الدِّين منْ خَلْفِ العُصور قـد أتـى في عزمـه نـارٌ ونـور

إنَّـه الإسـلام في عزَّتـه إنَّـه الإيـمانُ في قوَّتـه

أثـر القـرآن في أنـواره وضـيا [2] الفرقـانُ في أسراره

□ ولله در القائل:

ومـا الـصحراء تحـويني ترابـا ولا الـدأماء يتطـويني عُبابـا

زجـاجي منـه ترتعـد الـصُّخور وأفكـاري بـلا شـطٍّ بُحـورُ

ولي في القلـبِ وهّـاجُ الـسَّعير دجـاك أنِـرْ بمـصباحي المنـيرُ

---

(١) الرَّجع: المطر.

(٢) ضيا: أي ضياء.

□ ولله درّ القائل:

عُلُوُّ الهمّة المقصودُ فاعرف ... كجبريل الأمين إذًا فَرَفْرِفْ
ومن ريح القميص [١] فنل نصيبًا ... تنسَّمَ من ضفافِ النيل طِيبا
وذاتك نيِّرَيْن [٢] بها تصيدُ ... ومن تدبيرها لهما القيودُ
لهيب العزم في دنياك أضرِمْ ... بغزوك ما ترى أو غاب قوِّمْ

□ والقائل:

أيها المسلم يا نورَ السَّماء ... كيف لا تشرقُ في أرض البشرْ
أنت سلطانُ الليالي لا كما ... قالتِ الحمقى أسرُّ للقَدَرْ
إنَّ أصنامي التي في مَعْبَدِي ... مثلُها تلكَ التي في معبدِكْ
لم تحطمْها يدٌ غيرُ يدي ... فترفَّعْ عن يدٍ غير يدك
ذلك الأعمى الذي تَقْصِدُه ... ما له علمٌ بما في قلبكَ
هو لا يبصرُ حتَّى نَفْسَه ... وتراه تحفةً من ربِّك

□ وقائل:

رجلُ البصيرةِ لا يذوقُ هوانا ... سِيَّان عبدًا كانَ أو سلطانا
يختالُ والدرِّع الوحيدةُ زهدُه ... لا يشتكي زمنًا ولا شيطانا

---

(١) قال تعالى في سورة يوسف: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: ٩٣] وقد أرسل قميص يوسف من مصر إلى أرض كنعان، ووجد فيه يعقوب رائحة يوسف، فارتدَّ إليه بصره.
الريح: الرائحة. تنسم: شمَّ.

(٢) المراد بالنيرين الشمس والقمر.

□ والقائل:

عجبًا لأوربَّة ... بالنَّهر تُغرينا
وبذاتِ لَجَّته ... ضاعتْ معانينا
تُخْفي بهدأتها ... تيَّارَها الماحي
عصفتْ فما تركتْ ... وَكْرًا لتِمْساح
رأيُ العبيد بها ... لا نطمئنُّ له
وتقرِّرُ الأحرارُ ... الرأي مجمله
لا شيءَ يُقْنِعُنا ... إلا اجتهادٌ وفي
يأتي بلؤلؤةٍ ... من ذلك الصَّدَفِ
ذاكَ الرُّجاج إذا ... عَجَنْتُه في الكِير
فأنا أسنِّيه ... صخرًا بإكسيري
لي في الجهاد يدٌ ... فرعونُ يخشاها
بيضاءُ ما مُدَّت ... إلَّا لمولاها
أتظنُّ أوربة ... أنْ ينتهي نَفَسي
أو تنطفي ناري ... في قشِّها اليَبِس
ناري وقد أذكتْ ... ما اخْضَرَّ من قصبي
لا شيءَ يمنعُها ... من ذلك الحَطَبِ
متفاهمٌ قلبي ... لا يعرف اليأْسَا
الحبُّ عَلَّمَهُ ... أن يُرْغِم النَّفْسا

مـــن عُـــسْرِ عَالِمَـــه يـــستخرج اليُـــسْرَا
لا قَـــصْرَ قيـــصره يرجـــو ولا كِـــسْرَى
مُتعَلِّـــقٌ أَبَـــدًا بركـــاب ســـيِّدِهِ
لا غـــزو للأقـــمارْ يَـــسْقُطْنَ في يـــدِهِ
هـــو ســـيِّد الأشـــياء هـــو خـــاتمُ الرُّســـلِ
هـــو شـــعلةُ الـــسَّارِي في هـــذه الـــسُّبُل

□ وما أجمل قول القائل:

إذا خُـــضْتَ معركـــةً فلْـــتكنْ كموســـى بخطوتـــه الـــضَّاربهْ
فَمِـنْ ﴿لَا تَخَفْ﴾ شـعلةٌ لم تـزل تـــصاعدُ في الأجمـــة اللَّاهبـــهْ

□ ولله درَّه إذْ يقول:

أتطلـــبُ جيفـــةً الغربـــانِ هاتيـــكَ الـــشَّواهينُ
إذا أخفْـــتْ مخالبهـــا فأعينُهـــا ســـكاكينُ

□ وما أحلى قوله:

لـستُ أخفيـك أنَّنـي لم يَـرُقْ لي ذلكَ العيشُ في طُقوس الـصَّوامع
لا يـصيد العنقـاءَ صيَّاد سـوءٍ مُلِئَـتْ نفـسُه بـذلِّ المطـامع
طِرْتَ أم غُـصْت في سماءٍ وبحـرِ أم تراجعـتَ عـنهما وجَبُنْـتَ
لـيس يـدعو إلى الرِّثـاء وجـودٌ كـالوجودِ الـذي تعانيـه أنـتَ
وسـواءٌ، فـلا تقـل عـربيٌّ كنـتَ أو لم تكـنْ فلـيس يُفيـدُ
سـترى الـذكرَ أجنبيًّـا إذا لمْ يَـكُ للـذِّكْرِ في الفـؤاد شـهيدُ

□ وقوله:

النخلة الشمَّاءُ أختُك كُوِّنتْ ... مما تبقَّى من بقايا طينتِكْ
أتطوفُ في الحاناتِ تستقي كأسَها ... وتطوفُ مخنوقًا بعلمانيتكْ
ما في مدارسِك الَّتي ترتادُها ... إلَّا بحوثُ مغفَّل وبليد
سرُّ الدِّراسةِ في فؤادك كامنٌ ... لو كنتَ تُتْقِنُ صَرْخَةَ التَّوحيد
لم تبق يا مسكينُ إلا فرصةٌ ... لك في استعادة سِرَّكَ المفقودِ
اطلبْ علومَ القلب من أستاذها ... واجهدْ لنيل مقامِكَ المحمودِ

□ وقوله:

رأيتُ فلاسفةً بالألوف ... رؤوسهُمُ تحتَ أطمارها
وذو الوحي يَرْفَع منْ رأسه ... ويكشِفُ أوهام أفكارِها

□ وقوله:

شبابٌ قعودٌ رقودٌ نيامْ ... لعجزِ الأميرِ وفوضى الجنود
فوا أسفًا كيفَ هذي السِّهام ... تطيشُ بلا هَدَفٍ في الوجود
يقولون بحرٌ عميقٌ عميقُ ... وما أضيعَ البحرَ ما أضيعَهْ
بحثتُ به موجةً موجةً ... وقلَّبتُ قوقعةً قوقعهْ
أما آنَ تهجرُ أصنامَهم ... أما آن تخرجُ من قُمْقُمِكْ
وغايةُ أصنامهم أنَّها ... تزخرف هيكلَها مِنْ دَمِكْ

□ ولله درُّه حين يقول:

أنا ابنُ المدينة وابنُ النَّجفْ ... غبارُهما كان في مُقلتي

غبارُهمـــا قطـــرةٌ للعُيـــون وأنفـــعُ طـــبٍّ لـــذي علَّـــةِ
مقـــيمٌ بـــرغم ريـــاح القُـــرون ومـــا كـــان مـــن مـــستبدٍّ عتـــي

قلق القلب عنوان علو همته :

□ قلقُ القلب وتطلُّعُه للكمال، عنوانُ علو همته، ولله ما أجمل قول القائل:

قلـــقُ القلـــب غـــذاءٌ وعطـــاءٌ حيـــويُّ
إنَّ قلبًـــا لـــيس فيـــه قلـــقٌ، قلـــبٌ شـــقيُّ

□ وقوله:

لـــستَ لهـــذي الأرض والـــسَّماءِ وإنَّـــما الـــسَّماءُ والأرضُ لـــكَ
ولـــستُ موضـــوعَهُما وإنَّـــما هـــذان جانبـــانِ مـــنْ موضـــوعِكَ

□ وقوله:

قلبُك الشَّمسُ فاقْبِسِ النُّورَ منه كـــلُّ مـــا ترتجيـــهِ نفـــسُك عنـــدكْ
كلُّ شيءٍ سواك -أنـت- سرابٌ شَـــهِدَ اللهُ أنَّـــك الحـــقُّ وَحْـــدَك

أرضنا يا عالي الهمّة تهفو لطهرك :

أرضُـــنا هـــذه لطُهْـــرِك تهفـــو أنـــتَ برهانهـــا وأنـــتَ هُـــداها
قلبُـــك المطمـــئنُّ قبـــضةُ نـــورٍ مَنَحـــتْ أعْـــيُنَ الـــسَّماء مـــداها
عـــن يـــدِ اللهِ طِـــرْتَ لا عـــن غبـــاءٍ أنـــتَ شـــاهينُه وأنـــتَ رســـولُه
ولـــكَ الحُـــورُ والملائـــكُ صَـــيْدٌ ذاك ديـــنٌ ولـــيس شـــعرًا أقولُـــه
أُتـــرى مـــا لِلْمُـــسْلمين نـــصيبٌ مـــن جنـــونِ الحـــبِّ الَّـــذي أطلقـــوه

دمُهم كان للشُّعوب منارًا ... ثمَّ هُمْ في ظلامهم أهرقوه
ذاك أنَّ الضُّلوعَ خارتْ قُواها ... لم يعد بينها لهيبٌ يصولُ
سجداتٌ رتيبةٌ في خمولٍ ... وصفوفٌ مُعوجةٌ وذُهولُ
أيُّها المسلمُ المثابرُ يرجو ... ثوبَ تقواه كنْ نسيجَ حياتِك
كنْ وحيدًا ووحِّدِ الله واكشِفْ ... سحْرَ ألوانِنا بقوَّة ذاتِك
كُنْ كما الموجُ كلَّ حينٍ تراهُ ... يدرسُ الشاطئَ الَّذي يبتغيه
انتزعْ من يديه ثوبَك وارجِعْ ... لا تغرَّنَّك الإقامةُ فيه

المؤمن عالي الهِمَّة:

□ يقول إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المسلم حيٌّ خالد، لا يزول، ولا ينقرض؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم، وموسى، وجاء بها النبيون، وقد قضى الله بخلودها وبقائها، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة، وتكفَّلت بتبليغ هذه الرسالة!».

□ ويقول: «إن المسلم لا تعرفُ أرضُه الحدود، ولا يعرفُ أُفقُهُ الثغور، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب. فليست دجلة في العراق، ودانوب في أوربة، والنيل في مصر، إلَّا موجةً صغيرةً في بحره الواسع ومحيطه الأعظم، إنَّ له عصورًا في التاريخ لا يقضى منها العجب، وله حكاياتٌ ومواقفُ في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب، هو الذي أمر العصر العتيق -العصر الجاهلي- بالرَّحيل، وافتتح العصر الجديد، إنَّه إمام رجال الحبِّ والعاطفة، وفارس ميدان الإيمان والحنان، لسانُه لبنٌ وعسل، وسيفه علقمٌ وحنظل، يعيش في ميدان

الحرب وتحت ظلال السيوف متذرعًا بالتَّوحيد، كلما اشتد به الخطب وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله».

أمام مسجد قرطبة.. وذكرى أُولى الهِمَّة العالية:

□ قال إقبال حين وقف على مسجد قرطبة وناجاه: «لقد كشفتَ أيها المسجد العظيم! عن سرِّ المؤمن، ومثَّلتَه في العالم، وصورتَ ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهارَه، والرقةَ التي يَمضي فيها ليله، صوَّرت للعالم مقامه الرفيع، وتفكيره السَّامي، ومسراتِه وأشواقَه، وتواضعَه ودلالَه».

□ ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة، فيصف سموَّه، وأخلاقه، وسيرته في العالم، فيقول: «إنَّ يد المؤمن هي جارحةُ القدرة الإلهية، فهي غلَّابةٌ، فتَّاحةٌ، قاهرةٌ، ناصرةٌ، أصله من تراب، وفطرته من نور، عبدٌ تخلَّق بأخلاق الله، واستغنى عن العالمين آماله ومطامعه قليلةٌ، وأهدافه ومطامحه رفيعةٌ جليلة، ألقي عليه الحب، وكسي المهابة والجمال، دقيقٌ رقيقٌ في الحديث، قويٌّ نشيطٌ في الكفاح، نزيهٌ بريٌّ في السلم والحرب، إنَّ إيمانه هو النقطة الدائرة التي يدور حولها العالم، وكل ما عداه وهمٌ وطلسمٌ ومجازٌ، إنَّه الغاية التي يصل إليها العقل، ولبُّ لباب الإيمان والحبِّ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها».

□ ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد، فيخاطبه في إجلال وإكبار، ويقول: «يا مثابةَ هواة الفنِّ! ويا مقصدَ روَّاد الجمال! ويا مجد الدين الإسلامي! لقد سمت بك أرض الأندلس، وتقدَّست في أعين المسلمين، إنَّك فريدٌ في الفنِّ والجمال، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن، أين لنا أولئك الرجال، هؤلاء الفرسان العرب، أصحاب الخلق العظيم،

وأصحاب الصدق واليقين، الذين برهنت حكومتهم على أنَّ حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادة، وليست حكمًا ولا ملكًا، هؤلاء العرب المسلمون الذي كانوا مربي الشرق والغرب، وكانوا أصحابَ عقولٍ حصيفةٍ وبصيرة نافذة، يوم كانت أوربة تتسكع في الجهل المطبق، والظلام الحالك، والذين لا تزال في الشعب الإسباني».

□ ولله درُّه حين يقول: «إنَّ كلَّ مأثرة وكلَّ إنتاج، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع، وكلُّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يَدْمَ له القلب، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر، ضرب من العبث والتسلية، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار».

ويبكي رحيل عُلاة الهمم عن «أسبانيا»:

□ فيقول في قصيدته «أسبانيا» التي كتبها في أسبانيا ساعة مغادرتها:

صوتُ المنائر في نسيمِك يَرْقُدُ وصداه في أرواحنا يتردَّدُ
يا توءَمَ الحرم الشريف تطوَّفَتْ بكِ رُكَّعٌ من عاكفينَ وسُجَّدُ
سيماكِ من أثرِ السُّجود على الثَّرى طربٌ يفوحُ ونضْرةٌ تتجدَّد

تحكي النجومُ أسنةً لرماحهم بإزائها ليلٌ يقومُ ويَقْعُدُ
ملؤوا وهادَك بالخيام ولم تزلْ أوتادُها بنسيمهم تتأوَّدُ
إنْ تسألِ الحسناءُ عن حُنَّائهم فتَخيبُ يُنْصِفُها دمي المتورِّدُ
يا طالما سُفِكتْ هناكَ دماؤُنا ظُلمًا ونحنُ المشفقونَ العُوَّدُ

مـا كـان صـقرُ قـريش غـيرَ موحِّـدٍ عجبًـا أمـا في المـسلمين موحِّـدُ
خَمَـدَتْ حقيقتُنـا وزالَ لهيبنَـا وبريـقُ قرطبـةَ الـشَّريدُ مخلَّـدُ
ووقفـتُ لا نـومي حَمَـدْتُ ولا الـسُّرى أتكبَّـد الجـرح الـذي أتكبَّـدُ
عانيـتُ مـشهدهم وقُلْـتُ وقيـل لي سِـيَّان قـولٌ في العـزاء ومَـشْهدُ

سـتُهتك الأسـتارُ عـن سـينائنا وتُبـاحُ أسرارٌ لنـا وتُبـدَّدُ
ويكـونُ أول مـن يقـومُ بهتكهـا للنـاس أولَ مـصلح يتحمَّـدُ[1]

□ ويقول في قصيدة له على نهج أبيات عبد الرحمن الأول عد مجيئه إلى الأندلس.. يقول:

وأعْجَبُ ما في الكونِ غربـةُ مثلنـا ... وفي الشَّام من أمثالنـا عَـدَدُ الرَّمـلِ
وما زلتُ في التَّطوافِ ألقى على المدى ... زمانًا غريب الوجه مختلف الشَّكل
وليس لهذا البحر من ساحلٍ يُـرى ... مضيتُ بـه عريـانَ مُمْتَـشِقًا نـصلي
وما منْ حياةٍ للَّـذي أنِـفَ الـرَّدى ... وهل يقدح الزِّند الشرارَ من الوحل
إذا شـامَ طـرفي الـبرقَ زادَ تألُّقًـا ... وحنَّ بذكرِ الشَّام للأعـين النُّجْـلِ
ومـا ضرَّنـا مُلْـكٌ تركنـاه خلفنـا ... فكـلُّ بـلادِ الله ملـكُ ذوي العَـدْلِ
سـنبني كـما كُنَّـا بنينـا لغيرِنـا ... وحاشا لأهلِ الجُوْدِ توصمُ بالبُخل
إذا نَـضَبَتْ أجـسادُنا مـنْ دمائِنـا ... فمنزلُنـا ريَّـانُ مـن غَـدَقِ البَـذْلِ

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٥).

ستذكُرُنا الدُّنيا وتندُبنا الورى ... وتطْلُب من آثارنا كعبةَ الفضلِ
يقال هنا صلَّتْ وضجَّت قلوبُهم ... هنا انتبذَتْ أرواحَها رسلُ النَّخْلِ [1]

دعاء عالي الهمة طارق بقلم «إقبال»:

□ في ديوانه «جناح جبريل» صوَّر إقبالٌ بأسلوبه الأدبي «دعاء» طارقَ ابن زياد عند خوضه المعركةَ لفتح الأندلس فقال: «قال طارق: اللهم! إن هؤلاء الفتيانِ الذين خرجوا جهادًا في سبيلك، وابتغاءَ مرضاتك، رجالٌ غامضون مجهولون لا يعرف سرَّهم وحقيقتَهم غيرُك، لقد منحتهم طموحًا وعلوَّ همَّة، لا يرضَون معه إلَّا أن يكونوا سادةَ العالم، يحكمون الدنيا كلها بحُكمك، ويُنفِّذون فيها أمرك، لا يعلوهم غيرُك، أبطال مغاوير، تنفلقُ بهيبتهم البحار، وتنضوي لصولتهم الجبال، لقد ذاقوا لذةَ الإيمان والحب، حتى استغنَوا بها عن العالَم والمادة، وهانت عليهم الدنيا وزخارفُها وشهواتها، وذلك شأنُ الحب إذا خالطت بشاشتُه القلوب، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنينُ إلا الشهادة، التي هي وطرُ المؤمن العزيز، وهمُّه الوحيد، لا يفكِّرون في الغنائم ولا في فتح البلاد، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد.

إن العالَم قد وقف على شفا حفرةٍ من النار، لا يمنعُه من التردِّي في الهاوية إلَّا أن يبذل العربُ دماءهم ونفوسهم بسخاءٍ وشجاعة، إنَّ العالم بحاجةٍ إلى دمٍ عربيٍّ زكيٍّ، فلا يروى غليلَه، ولا يشفى عليلَه إلا الدمُ العربي الطاهر، ها إن الأزهارَ والورود في الغابةِ في انتظار أن تُسقَى بهذا الدم القاني، فترفُل في حُلَّتِه، وقد قدِمنا لنزرع نفوسنا، ونريقَ دماءنا في

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٤).

هذه الأرض النائية، لتخصب الإنسانيةَ بعد جدب طويل، ويحل الربيع بعد انتظار شاقٍّ طال أمده.

لقد أكرمتَ يا رب رعاةَ الإبل وسكان الوبر -العرب- بنِعَمٍ فريدة لم يشركهم فيها أحد، لقد أفردتهم بعِلْمٍ جديد، وإيمانٍ جديد، وشعارٍ جديد، هو: أذان الصبح، فقد أفلستِ الأممُ من العلم الصحيح، والإيمان القوي، والذوق الرفيع، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد، على حين غفلةٍ من الناس، أما العرب، فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم، وجدَّة إيمانهم، وسلامة ذوْقهم، ودَوِيِّ آذانهم في السكون المخيَّم على العالم، والظلام الحالك، لقد كانت الحياةُ فَقدت لوعتها وحرارتها من قرونٍ طويلة، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضةِ بالإيمان والحنان، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة، وكَتَلَفٍ للنفس الإنسانية، إنهم يروْن فيه فتحًا جديدًا، وعيشًا جديدًا.

أَعِدْ يا رب! إلى هذه الأمة المؤمنة الحِمَيَّة الإيمانية والغضبة المؤمنة، التي تجلَّت في دعاء نوح عليه السلام، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح] حتى تصبحَ صاعقةً على عالم الكفر والفساد، وأَخْلِق فيها المطامح البعيدة، والعزائم القوية الشديدة، واقذف في قلوب الناس رعبتها، وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف»[1].

□ ثم نظمها إقبال شعرًا فقال:

هـذي الكُـمَاةُ عبـادُك الأخيـارُ حملـوا عَنَـاءَ العـالمين وسـارُوا

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٧- ٤٨٨).

أصحابُ سرِّكَ والسِّيادةُ طبعهم ... والنُّورُ في نظراتهم والنَّارُ

فعلتْ كموسى في البحار عِصِيُّهم ... وتراجعت لِخُطَاهُمُ الأنهارُ

البَحْرُ حَبَّةُ خَرْدَلٍ في كَفِّهم ... والعِشْقُ في أرواحهم إِعْصَارُ

عزفوا عن الدَّارَيْنِ إلَّا أنَّهم ... عَلَمٌ على الدَّارين لا ينهار

نيْلُ الشَّهادَةِ للموحِّدِ مَطمَحٌ ... وإذا تقحَّم فالجراحُ غُبارُ

لا سَبْيَ غانيةٍ وسَلْبَ خزانةٍ ... ومطامحُ الهممِ الكبارِ كِبارُ

كلُّ العبادِ على اختلافِ عروقِهم ... ترجو رجاءَ شقائقِ النُّعمانِ

ترجو من العربيِّ لونَ دمائِه ... وتضجُّ ليلَ نهارَ في البستانِ

ربَّاهُ أنت بَعَثْتَ من صحرائهم ... سكَّانها وجعلتهم أفذاذا

وملأتَ صدرَ الصبح من آهاتهم ... وجَعَلْتَ أعرابيَّهم أُسْتَاذَا

طوتِ الحياةُ الدهر تنشد طُلْبَه ... عزَّتْ وطلبتُها مذاقُ النَّار

وبروحهم عثرتْ عليها بعدما ... كلَّت من التِّرحال والتِّسيارِ

الموتُ ليس نهايةً في عينهم ... هو للبصيرة بَابُها المفتوحُ

ربَّاهُ! فابعث مسلمين أعزَّةً ... يتوسلون كما توسَّلَ نوحُ

لتغيُّرات العَصْر من ثوراته ... وهمٌ وأنت الفرد لا تتغير

رباه! أنت هو الحقيقة كلُّها ... والناس منها موسِرٌ أو مُعْسِرُ

الدَّهْرُ ملك يديك ليس لأهله ... إلا ظنونُ الواهم المتقوِّلُ

يتنـــازعون عـــلى تفهُّـــم عـــالمٍ سكرانَ من ماضٍ ومن مستقبلِ[١]

عالي الهمّة:

عـــذبُ الكَلِـــمَاتِ خفيـــفُ الـــرُّوح رقيـــقُ القلـــبِ مُـــسَهَّدُهُ
أبـــديُّ الحـــبِّ نقـــيُّ الحَـــرْبِ مـــصونُ العِـــرْضِ مهنَّـــدُهُ
وعـــلى يـــدهِ لله يـــدٌ بلطيـــفِ القُـــدْرةِ تَعْـــضُدهُ
العـــالَمُ قَـــصْرُ خلافتِـــهِ وســـماءُ العـــالمِ معبَـــدُهُ
سِرُّ الكـــوْنيْن بنظرتـــهِ وعـــن الكـــونيْن تجـــرُّدُه
وسرابُ العـــصْرِ بنـــور الـــدِّين ونـــارُ الحـــبِّ يبـــدِّدهُ
هـــو أوَّلُ سرٍّ في الـــدنيا ورجـــاءُ الكـــونِ ومقـــصِدُهُ[٢]

نصيحة:

□ قال نسرٌ عجوز لبازٍ فتى:

لا تقـــلْ أصـــلي وفـــصلي أبـــدًا قيمـــةُ الـــشَّاهينِ في أخلاقِـــهِ
إنَّـــما الـــشَّاهين مـــن يَحْرُقُـــه دمُـــهُ الشَّخـــصيُّ في أعماقِـــهِ
قـــسوةُ التَّـــدريبِ روحُ الـــسُّؤددِ لا تـــضيِّعْه ســـديّ هـــذا الكـــلامْ
ســـترى قيمتَـــه يـــا ولـــدي! حـــين تـــنقضُّ عـــلى فَـــرْخ الحـــمامْ
مـــا أرينـــا فرحـــةً أمتـــعُ مـــن فرحـــةِ المـــنقضِّ مـــن افـــقِ الـــسَّماء
فـــــرحٌ والله لا يعدلـــــه فـــرحٌ، حتـــى ولا ســـفكُ الـــدِّماء!

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٩).
(٢) المصدر السابق (١/ ٤٧٩).

□ قال إقبال:

عظمةُ الشَّاهين وشوكتُه توجدُ في طيرانِ الدَّرَّاج
والصَّيادُ في حيرةٍ شاهينٌ هذا أم درَّاج
تلاطَمَتْ أفكارُ كلِّ قومٍ
فاليومَ مُظْهرٌ لغدِ القيامةِ في الشَّرق
الميِّتُ الذي كان في حاجةٍ إلى صُوْرِ إسرافيل
لمطالبِ الفطرة![1]

□ وقال:

إذا اعتقدتَ أنَّ هذا القلبَ قطرةٌ منْ دمٍ فَهُوَ كذلك
فقلبُ الإنسان إنَّما هو -فقط- جذْبةٌ عالية
لا يُعْجبُه دوران القمر والنجوم
فهو الذي يخطِّطُ سَحَرَهُ ومساءه
لا يمكنُ أن يَبْرُدَ ذلك التُّرابُ الأصيلُ
الذي تَكْمُنُ في ضمير ترابه نارُ چنار[2]،[3]
«لو تأخذُ شرارةً من نار القلب
فإنَّك تستطيعُ أن تجعلها شمسًا تحت الفَلَكِ»[4]

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٥٣٨).

(٢) چنار: شجرة ذات أوراق كثيرة، تشبه كف اليد، وتكون خضراء في الصيف، بينما تحمر جدًّا في الخريف وتصبغ في لون النار الملتهبة خاصةً في الأصل.

(٣) المصدر السابق (١/ ٥٣٨).

(٤) المصدر السابق (١/ ٥٣٩).

لا حَدّ للسموّ:

جسَّ الطبيبُ بقلبي من أكابِدُه ... فقال: ويحك ما تخفيه منْ طلب
تطلعاتُك لا طاقاتُ تحملها ... لكن (لكَ الحقُّ) لا تيأس من السَّبب
وما يُسمَّى صفاءَ الرُّوح أعرفه ... وليس هذا الذي في قلبك اللَّجِب
هذا الدمُ القِرْمزيُّ اللونِ (نَضْرَتُه) ... تدلُّ أنَّك لم تشربْ شرابَ غبي

يا ابن الإسلام! أين أنت من علو الهمَّة؟!

أيُّها الغافلُ عمَّا حُمِّلا ... أنت في الكونين أعلى منزلا
افتحنْ عينًا وأُذنًا وفما ... تُبْصرِ الحقَّ طريقًا مُعلَما

الخوف، والحُزن، واليأس أمَّهات الخبائب محبطات للهمة:

عُدَّة الموت قُنوطٌ مُحبطُ ... والحياة الحقُّ أن «لا تقنطوا»[1]
إنما العيشُ رجاءٌ يُوصل ... فقنوطُ الحيِّ سمٌّ يَقتل[2]
يأسك القبر إليه ترجع ... إن تكنْ ألْوَنْدَ فهو المصرع[3]
رُبّت الخيبة في أكنافه ... ونما العجز على ألطافه[4]
آهِ منْ نوم الحياةِ المُخدِر ... إنَّه آيةُ ضعفِ العنصر

---

(١) مقتبس من القرآن ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.
(٢) رجاء يوصل: دائم لا ينقطع.
(٣) ألْوَنْد: جبل عال مشرف علىٰ مدينة همذان يعني: إن تكن كجبل ألونَد في اليأس مصرعك.
(٤) الضمير اليأس في أكفانه تشب الخيبة، وبفضله ينمو العجز.

كحلُه في العين يُعمي البصرا ... ويردُّ الصُّبحَ ليلًا أكدرا[١]

نَفَسٌ منه سَمومٌ للحياه ... كلُّ ينبوعٍ به جفَّ ثراه

وهو للغمِّ حليفٌ واصلُ ... إنَّما الغمُّ لحيٍّ قاتلُ

يا سجينَ الغمِّ أبصِر واسمعِ ... من رسول الله «لا تحزن» وعي[٢]

ذلك النُّصح سرى في قلبه ... فغدا الصِّديقُ صدِّيقًا بهِ

إنما المسلم مثلَ الكوكبِ ... باسمٌ في سعيه والدَّأبِ

حرِّرِ النَّفس منَ الغمِّ ودَعْ ... إنْ عرفت الله، أغلالَ الطَّمعْ

قوةُ الإيمانِ تُحيي فاعلَمنْ ... وِرْدَ «لا خوفٌ عليهم» فاقرأنْ[٣]

قلبه من «لا تخف» قلبٌ سليمْ ... حين يمضي نحو فرعونٍ كليمْ[٤]

خوفُ غيرِ الله قتْلُ العملِ ... وهو للأحياء قطعُ السُّبُلِ

وبه العزمُ يخاف الغِيرا ... وترى المِقْدَام منه حَذِرا

من نما ذا البذر يومًا في ثَراهْ ... حَرمتْه من تجلِّيها الحياهْ

فهو فسلٌ وهو شادٍ يَعْزِف ... يد شُلَّت وقلبٌ يرجُفُ

---

(١) الكحل يجلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلامًا.

(٢) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

(٣) إشارة إلى الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

(٤) إشارة إلى قصة موسى عليه السلام وفرعون وقول الخالق عن موسى عليه السلام ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين.

يسرِقُ الرِّجلَ قُوَى تسيارها ... يسلبُ الرأسَ قوى أفكارها

إنْ تجلَّى لعدوٍّ خوفُكما ... هانَ كالوردِ، عليه قطفُكا

سيفُه يزدادُ فتكًا في اليد ... عينُه فيك حسام لا يَدي [1]

غلَّنا الخوفُ، وكم في بحرنا ... منْ عُبابٍ مائجٍ في دهرنا

إن أبى النعمة يومًا مِزهرك ... فمن الخوف تندَّى وترك

فاعرْكِ الأذنَ يَثُر فيه الحداء ... ويهزَّ اللحنُ آفاقَ السَّماءَ

كلُّ شرٍّ في فؤادٍ يُضْمرُ ... أصله الخوفُ، إذا ما تُبصِرُ

منْ ديار الموت عينٌ قَدِما ... مثل ميم الموت قلبٌ أظلما [2]

عينُه تلبيسُ آثارِ الحياه ... أذْنه تدليسُ أخبار الحياه [3]

يُزهر الحِبُّ به والمَلِق ... ونفاقُ القلبِ منه يورقُ

ثوبه للزُّور سترٌ والريبُ ... حِجْرُه الفتنةُ فيه والحَرَبْ

حُرِمَ الخوفُ طُموحَ الهمَّةِ ... فهو خدنٌ لحليف الذِّلَّةِ

كلُّ من يفقد سرَّ المصطفى ... يجدُ الإشراكَ في الخوْفِ اختفى

---

(١) لا يؤدي دية من قتله.

(٢) عين: جاسوس. والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصمتة. فجعل الشاعر الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت. وفي الأصل ميم مرك. ومرك: موت. فالميم في الأصل والترجمة.

(٣) تشوه مظاهر الحياة عينه. وتحرف أخبار الحياة أذنه.

أحبُّ.. وأحتقر[1]:

أحـبُّ الجبـالَ الـشامخاتِ كأنَهـا ... على جَبهـةِ الـدّنيا تـصولُ عواتيـا
تَضاحَكُ من عصفِ الرياح وزأرها ... وتحتـضنُ الـسيل الحَـرونَ المُعادِيـا
وتلهو عـنِ الزّلـزالِ وهْـوَ مُزَمْجَـرٌ ... يضجُّ ببطنِ الأرضِ غضبانَ واريـا
وأحتقرُ الكُثبـانَ تُرعـشها الـصبَّا ... ويفزعهـا الإعـصارُ إن مَـرَّ لاهيـا
وتحملُهـا الأريـاحُ أني توجَّهـت ... ألاعيـبَ في أسـفارها وألاهيـا

وَإِنِّي لأهوى السيَّلَ يَـنْحَط مزبـدًا ... ويَـدفُقُ جَيَّاشًـا ويهـدِرُ صـاخبا
عَتيًـا عـلى الـسَّدِّ المنيـع يَدُكُّـهُ ... ويحملُـهُ نحـو الـسُّهول خَرائبـا
يمرّ على العُشْبِ الضعيفِ مُسامحًا ... ويلتقـفُ الـدّوح العَنيـدَ المغالبـا
وتحقـرُ عينـي جَـدولًا في خميلـةٍ ... يحـوِّل طفـلُ الحـيِّ مجـراهُ لاعبـا
يكَـدِّرُهُ حتـى النـسيمُ ملاطفًـا ... ويُفزِعُـه حتـى فـمُ الطفـلِ شـارِبا
أُحبُّ العُقابَ الجَوْنَ يختال في الذرا ... ويكب مـتنَ الجـوِّ جـذلانَ باسـما
ويخترقُ الريحَ العَـصوف لقـصدِه ... ولو حطَّمتْ من جانحيه القَوادمـا
يموتُ ولا يشكو الجراحَ ولا ترى ... لـه آكـلًا بـينَ الأنـامِ وهاضـمًا
وأحتقـر الورقـاءَ تـألفُ سـجنهَا ... وتبكى وما تلقى من الناسِ راحمًا

---

(١) للشاعر الأستاذ أمجد الطرابلسي وزير التعليم السوري السابق – مجلة الأزهر- جمادي الأولى ١٤٢٧هـ (٧٨٠- ٧٨١).

وهل غيرُ ضَعفِ الوُرْقِ سوَّغَ حَبْسَها ... وصَيَّرَ شدوًا نوحَها والمآتما

وإني لأهوى نحلة تدهَمُ الرُّبا ... فتنهلُ من ثغرِ الزهورِ رحيقَها

ترشَّفُ من كأس الأقاحي صبوحَها ... ومن حُمرةِ الوردِ النَّديِّ غَبوقَها

حَصَانٌ تروعُ العاشقينَ بوخزها ... إذا ما تَمَنّوا لو يذوقونَ ريقَها

وتحفرُ عيني نملةً تألفُ الوَلي ... وتملأُ من بَخْسِ الفُتاتِ خُروقَها

تدِبُّ على الأقدام هُونًا وذلةً ... وتسلكُ من تحتِ النعالِ طريقها

أحبّ شَموخَ الدِّوحِ في ربواته ... يُجابه هَوْلَ العاصفاتِ ويُثبُتُ

أبيًا على حربِ الأعاصيرِ ظافرًا ... تكُرُّ جموعًا حولَهُ فَتَشَتَّتُ

وإنْ خرَّ في الميدانِ بعد نضالِها ... تراها عليه نائحات تُصَوِّتُ

وَأحتقرُ الأعشاب تَحني رُءوسَها ... فتسلَمُ من رَيْبِ المنونِ وتُفْلتُ

تدورُ مَعَ الإعصارِ حيثُ يُديرها ... ويلطِمُها هونًا فترضى وتسكُتُ

وإني لأهوى الليث يستعذبُ الطوى ... ويأنفُ أن يُدنى إلى جيفةٍ يدا

يسيرُ أَشَمَّ الأنف مستكبرًا الخُطا ... فترتجفُ البيداءُ إن راحَ أو غدا

ويَجْبُهُ وحشَ البيد في حُرِّ وَجهها ... ولا يَذَّري أعداءه مُتَصَيِّدا

وتحقرُ عيني ثُعلبانًا مخادِعًا ... جَبانًا خليع القلبِ يغدِرُ بالعِدا

يُصيبُ فُضالاتِ السّباع وينثني ... ليشكرَ رزّاق العبيدِ ويَحْمَدا

أحبّ الفتى يَفر الفلاة مُهَجّرًا ... فلا يشتكي أينًا ولا يتظلَّمُ

إذا لذَّعتهُ الشَّمْسُ سَدَّدَ وَجْهَهُ ... إليها حديدَ الطَّرف لا يتبرَّمُ

ويمشي على الرَّمضاء مُتئِدًا الخُطا ... جَليدًا، ونيرانُ الرمالِ تضرَّمُ

وأحقر نكسًا يستظلّ بنيره ... ويخفضُ رأسًا وهو شاكٍ يدَمْدِم

تساورُهُ الأَشباحُ في القفرِ رَهْبةً ... فَيَرْعَشُ منهُ القلبُ والطَّرفُ والفَمْ

أحبُّ الفتى والغُلُّ يثقلُ عُنُقَهُ ... وسيفُ الأعادي بينَ عينيهِ مُشْهَرُ

يصيحُ بأعلى صوتِه ينكرُ الأذى ... ويضحكُ من بطشِ الطُّغاةِ ويَسْخَر

ويشمخُ بالأغلالِ رأسًا وإن غدتْ ... تَحُز ومن أنيابها الدَّمُ يَقْطُرُ

وأحتقرُ الأحرار يحنونَ رأسهم ... وليس عليهم سَيِّدٌ أو مُسَيْطِرُ

إذا كانَ قلبُ المرءِ عَبْدًا ورَأْيُه ... فَقُل لي -هُديتَ الخيرَ- ماذا تُحَرِّرُ

يا ابن الإسلام.. أنت يوسفُ أعظم الأحلام.. أنت على طريق سلفك العِظام.. ووارث الجنة.. والناظر في يوم المزيد إلى إلهك رب الأنام:

يا سليل المجد أين أنت من آبائك العظام وسلفك الكِرَام:

يـا سـلـيلَ المَجْـدِ مـاذا غَـيَّرَكْ؟ ... أنـتَ للمَجْـدِ وهـذا المَجْـدُ لَـكْ
كيـف تغفـو يـا فتـى التوحيـد هَـلْ ... هَيَّـأَ الأَعـداءُ في الـدَّرب الـشَّرَك
أُمَّتـى قَـدْ عَلقَّـتْ فيـكَ المُنَـى ... فاستَفِقْ وانهَضْ وغادِرْ مَضْجَعكْ؟
عُـدْ إلى الـرَّحْمنِ في طُهْـرٍ تَجِـدْ ... مَرْكَـبَ النَّـصْرِ إلى العَلْيَـا مَعَـكْ
وَتَـرَى الأبطَـالَ آسـاد الـشَّرَى ... تـشتهي يَـوْمَ الفِـدَا أَنْ تَتْبَعَـكْ

صُمَّتْ أذُنُ الدنيا إنْ لم تسمع لنا فنحن ملكنا هذه الدنيا القرونا:

مَلَكْنَـا هـذه الـدُّنْيَا القُرُونـا ... وأَخْـضَعَها جُـدُدٌ خالِـدُونا
وسَـطَّرْنَا صـحائفَ مِـن ضِـياءٍ ... فـما نَـسِيَ الزَّمـانُ ولا نَـسِينا
حَمَلْناهـا سُـيوفًا لامعـاتٍ ... غَـدَاةَ الـرَّوْع تَـأبَى أَن تَلِينـا
إذا خَرَجَـتْ مـن الأَغْـمادِ يومًـا ... رأيـتَ الهَـوْل والفـتحَ المُبينـا
وكُنَّـا حـين يَرْمِينـا أنـاسٌ ... نُـؤَدِّبُهُمْ أبـاةً قَادِرِينـا
وكُنَّـا حـينَ يأخُـذُنَا وَلِيٌّ ... بطُغْيَـانٍ نَـدُوسُ لـه الجَبينـا
تَفـيضُ قلوبُنـا بالهـدِي بأْسًـا ... فـما نُغْـضِي عـن الظُّلـمِ الجُفُونَـا
ومَـا فَتِـيءَ الزَّمـانُ يـدورُ حتَّـى ... مَـضَى بالمجـدِ قـومٌ آخرونـا
وأصبحَ لا يُرَى في الرَّكْـبِ قـومي ... وقـد عاشـوا أَئِمَّتَـه سـنينا

وآلَنِـــي وآلمَ كُـــلَّ حُـــرٍّ ... سُـؤالُ الـدَّهْرِ أيـنَ المـسلمونا؟

تُـرَى هـلْ يَرْجِـعُ المـاضي فـإنِّي ... أذوبُ لـذلكَ المـاضي حنينـا

بَنَيْنَـا حِقْبَـةً في الأرضِ مُلْكًـا ... يُدَعِّمُـه شـبابٌ طامحونـا

شـبابٌ ذَلَّلُـوا سـبلَ المعـالي ... ومـا عَرَفـوا سـوى الإسـلامِ دِينـا

تَعَهَّـدَهُم فـأَنْبَتَهُم نباتًـا ... كَـرِيمًا طـابَ في الـدُّنيا غُـصُونا

هُـمُ وَرَدُوا الحيـاضَ مبارَكـاتٍ ... يَـدُكُّونَ المعاقِـلَ والحُـصُونَا

وإِنْ جَـنَّ المَـسَاءَ فـلا تـراهمُ ... مِـن الإِشْـفَاقِ إِلَّا سـاجِدِينا

شـبابٌ لَمْ تُحَطِّمْـه الليـالي ... ولمْ يُـسْلِم إلى الخَـصْمِ العَرِينَـا

ولم تَـشْهَدْهُمُ الأقـداحُ يومًـا ... وقـد مَلَئُـوا نـوادِيهم مُجُونـا

ومـا عَرَفُـوا الأغـانِيَ مائعـاتٍ ... ولَكِـنَّ العُـلا صِـيغت لُحُونَـا

وقَـدْ دَانُـوا بـأَعْظَمِهِم نِـضَالًا ... وعِلْـمًا لا بـأَجْرَئِهِمْ عُيُونَـا

فَيَتَّحِـدُون أَخْلافًـا عِـذَابًا ... ويَـأْتَلِفُون مجتمعًـا رَزِينـا

فـما عَـرَف الخلاعـةَ في بنـاتٍ ... ولا عَـرَف التخنُّـتَ في بَنِينـا

ولم يَتَـشدَّقُوا بقـشورِ عِلـمٍ ... ولم يتقلَّبُـوا في الملحـدينا

ولم يتبجَّحـوا في كـل أمـرٍ ... خطـيرٍ كـي يقـالَ مُثَقَّفُونـا

كـذلك أخـرجَ الإسـلامُ قـومي ... شـبابًا مُخلِـصًا حُـرًّا أمينـا

وعَلَّمَـهُ الكرامـةَ كيـف تُبْنَـى ... فَيَـأْبَى أنْ يُقَيَّـدَ أَوْ يَهُونَـا

دَعُــوني مِــن أمــانٍ كاذبــاتٍ فَلَــمْ أَجِــدِ المُنَــى إلا ظُنُونَــا
وهــاتُوا لي مِــن الإيــمانِ نُــورًا وَقَــوُّوا بــين جَنْبَــيَّ اليَقينَــا
أَمُــدُّ يَــدِي فَــأَنْتَزِعُ الــرَّوَاسِي وَأَبْــنِ المَجْــدَ مؤتلِقًــا مَكِينَــا[1]

«رأيت البارحة شيخًا يدور حول المدينة، وقد حمل مِشعلا، كأنَّه يبحث عن شيءٍ. قلت له: يا سيدي! تبحث عن ماذا؟ قال: قدْ مَلَلْتُ معاشرة السِّباع والدواب، وضِقْتُ بها ذرعًا، وخرجتُ أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم؛ لقد ضاق صدري من هؤلاء الكَسالى والأقزام، الذين أجدهم حولي، فخرجت أبحث عن عملاق من الرِّجال وبطل من الأبطال، يملأ عيني برجولته وشخصِيَّته ويروِّح نفسي.

قلت له: لقد غرَّتك نفسك يا هذا! فخرجت تقتنص العنقاء، بالله لا تُتْعِب نفسك، وارجع أدراجك، فقد أجهدتُ نفسي وأنضيتُ ركابي، ونقّبتُ في البلاد، فلمْ أرَ لهذا الكائن عينًا ولا أثرًا. فقال الشيخ: إليك عني أيها الرجل! فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي أعزُّه وجودًا وأبعدُه منالًا»[2].

حاجة العالم إلى الإنسان الكامل عالي الهمة أشدُّ اليوم من حاجته إلى القارّات الجديدة والبحار المجهولة، وأجل خطرًا، وأعظم قدرًا من أي شيءٍ سواه، فقد اجتمعت فيه من معاني الإسلام القوةُ والحياة والجمال والكمال فهو الضَّالة المنشودة والصورة الكاملة للإنسانية إن المسلم عالي الهمَّة المثالي يمتاز بين أهل الشك والظنّ بإيمانه ويقينه، وبين أهل الحبن

(١) ديوان هاشم الرفاعي «الأعمال الكاملة» (ص١٩٦ - ١٩٧).
(٢) «روائع إقبال» لأبي الحسن الندوي (ص٧٣).

والخوف بشجاعَته وقوته الروحيّة، وبين عُبَّاد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص، وبين عُبّاد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقيّاته وإنسانيته، وبين عُبّاد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرُّده من الشهوات وتمرُّده على موازين المجتمع الزائفة، وقيم الأشياء الحقيرة، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكِبَر نفسه؛ يعيش برسالته ولرسالته. ذلك المسلم الحق الذي مهما اختلفت الأوضاع وتطوّرت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التي لا تتغيَّرُ ولا تتحوَّلُ، وأمّا ما عداه فزبَدٌ يذهب جفاءً، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، أمَّا ما عداه فشجرة اجْتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

«إنك أيها المسلم عالي الهمة في العالَم وحدك، وما عَداك سرابٌ خادع ودرهم زائف. إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق، وكل ما عداه في هذا العالم المادي وهُمٌ وطِلَّسْم ومجاز».

إن حاجة الكون والبشرية إلى المسلم عالي الهمة ليست بأقل من حاجتهما إلى الماء والهواء والنور، فمعاني الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق، التي تتكفَّل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها، ويتكفَّل المسلم عالي الهمة بإعلانها والقيام بها والجهاد في سبيلها، فلولاه هو لضاعت الغايات والرسالات وأصبحت سرًّا مكتومًا.

إذن فمركزه في العالم، وبقاؤه كبقاء الشمس والكواكب النيّرة، تنقرض الأجيال والأمم، وتحوّل الأنهار مجراها، وهو قائم لا يزول ولا يحول.

لا يُمكن أن ينقرض المسلم من العالم؛ لأن وجوده رمزٌ لرسالات الأنبياء، وإنَّ أذانه إعلانٌ للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى

ومحمد ﷺ: «المسلمُ رسالةُ الله الأخيرة، فلا يعتريها النسخُ والتبديل» وهو الحاضن للأمانة الخالدة، والرسالة الخالدة، والذي يعيش لغاية خالدة. إن المسلم موج من أمواج بحر الإسلام الخضمّ وتتلاشَى في وجوده، والبحر لا يتغيرّ؛ فالبحر امتداد دائم، وتسلسل قائم لأجزاء متغيِّرة كبحر الحياة، وبحر الوجود تتبدَّل أمواجه -وهي أفراد البشر- ولا يتبدَّل كيانه.

□ ويقول في قصيدة أردية تكاد تسيل رقة وعذوبة: «لقد هبّت عليّ نفحة منعشة من نسيم السَّحر في الصباح الباكر فناجتني، وقالت لي: إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته ومركزه لا يليق به إلا عروش الملوك وأسرَّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قوام، ولا شرف، ولا كرامة إلَّا بهذه «المعرفة»، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها، أصبحت من سَقَط المتاع، إنه يتربَّى في مدرسة شعري وأدبي، شباب لا يملكون درهمًا ولا دينارًا، ولكنهم يملكون صولة السلاطين، ويحسنون آداب الملوك، إن لك الخِيار، فاختر ما شئت، ولكنني بدوري، لم يعجبني الفرار من الحياة، والعكوف في الزوايا والخلوات.

لقد هيأك الله - أيها الشاب المسلم- لاقتناص «هُما»[1]، وما هذه الطيور والأسماك التي تملأ العالم إلَّا لتتمرَّن عليها في بدء أمرك، ويتلهى بها غيرك. وما نُطْقك بالشهادتين -أيها المسلم- سواءً أكنت عربيًّا أو أعجميًّا، إلَّا حديثًا غريبًا، حتى يشهد بها قلبك»[2].

---

(١) طائر أسطوري في الأدب الفارسي والأردي. يضرب به المثل في اليُمن والسعادة، يقال: إنه ما أظل إنسانًا، وما طار فوق رأس إنسان إلا وكان ملكًا في يوم من الأيام.

(٢) «بال جبريل» (٦٧- ٦٨).

□ ويقول في قصيدة خفيفة الوزن، قصيرة البحر، سهلة اللفظ، كأنها قطعة من نثر، أو حديث من أحاديث الناس: «إن كلَّ ما في العالم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكية، راحل زائل، وغائب آفل، أنت - أيها الإنسان المسلم- بطل المعركة، وقائد الجيش، وكلُّ ما حولك من سافلٍ وعالٍ، ورخيص وغالٍ، من جنودك وأتباعك.

أسفًا لك، أيها الرجل! لم تقدِّر نفسك، ولم تحسَب لها حسابًا، ما أشدَّ جهلَك، وما أضيقَ نظرك! إلى متى تجري وراء الدنيا الذليلة، وتعبدها وتخضع لها؟ إما أن ترفضها رفضًا باتًا، وتزهد فيها وتتبتَّل، وإما أن تملك ناصيتها وتسودُ وتحكم، لا منزلةَ بين المنزلتين، ولا توسُّط بين النهايتين».

□ وهذا قليلٌ من كثير جدًّا، تطفح به كتبه، ودواوين شعره، وفي هذا بلاغٌ للشباب المسلمين الذين خضعوا لنظام التربية الحديثة، والفلسفات المادية، التي حَجبت عنهم شخصيتَهم، وآفاقَ عالم الروح والقلب، وأعماق النفس البشرية، ومرامي المؤمن القوي الطموح، ولم تصوِّر العالَم إلَّا سوقَ تجارة أو مركز إنتاج، أو حانوت خمر، أو بيت مقامرة، أو مكان تنافس للقيادة، وصراع في مجال الاقتصاد والسياسة، ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾.

خُلِق العالَم لعالي الهمّة:

□ رحم الله إقبالَ القائل: «إن العَالَم تراثٌ للمؤمِن المجاهِد، لا يشاركه فيه أحدٌ، ولا أعدُّ مؤمنا كاملًا من لا يعتقد أن العالم خُلِق له».

نعم.. خَلَق كل شيءٍ لك، وخلقك له، فلا تنشغل بما خلقه لك عمَّا خلقك له.

وله مقام الإمامة والتوجيه:

إن المسلم لم يُخلَق ليندفع مع التيَّار، وليساير الرَّكب البشري حيث اتجَّه وسار؛ بل خُلِق ليوجِّه العالَم والمجتمع والمدنيَّة، ويفرضَ على البشرية اتجاهه، ويُملي عليها إرادته؛ لأنه صاحبُ الرسالة، وصاحبُ العلم واليقين؛ ولأنه المسؤول عن هذا العالَم وسيره واتجاهاته؛ فليس مقامُه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقامُ الإمامة والقيادة، ومقامُ الإرشاد والتوجيه، ومقامُ الآمر الناهي، إذا تنكَّر له الزمانُ، وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادَّة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع، ويضعَ أوزاره، ويسالم الزمان، بل عليه أن يثورَ عليه وينازلَه، ويظلَّ في صراع معه وعراك، حتى يقضي اللهُ في أمره.

□ يقول في بيت: «يقول من لا خلاق له: دُر مع الدهر حيث دار، وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه؛ وأنا أقول إذا لم يُسالمك الزمان، فصارِعْه وحاربه، حتى يفيء إلى أمر الله».

ويرى أن المؤمنَ غيرُ مأذون بمجاراة الأوضاع؛ بل هو مكلَّفٌ بمصادمة الأوضاع الفاسدة، يردُّ الأمر إلى نصابه، ويقيمُ سالفة الدهر الغشوم، ويقيمُ العوجَ، ويُصلح الفاسد، وإن كلَّفه ذلك عملية الهدم والنقض، والعملية الجراحية؛ فإن كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والإصلاح.

□ يقول في بيتٍ: «على المسلم أن يربِّي في نفسه الروح، وينشيءَ في هيكله الحياة، ثم يحرق هذا العالَم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته، وينشئ عالمًا جديدًا».

عالي الهمة:

هو مؤذِّنُ الفجر في الليل البهيم، وإنَّ أذانَه لا يزال صيحةً تدوِّي في هدوء الليل وسكون الموت، فيُعيد إلى هذا العالَم النائم الناعس المتعَب حياتَه ونشاطه، ويؤذِّن بطلوع الصبح الصادق، وانصرام الليل الغاسق.

وعلى هذا الأذانِ الصارخ والنداء العالي، الذي ارتفع من جبل «أبو قُبيس» قبل ثلاثة عشر قرنًا، استيقظ هذا الكونُ بعد السُّبات العميق، الذي غطَّ فيه خمسةَ قرون وأكثر؛ وكان نفخةَ صُور للإنسانية الميتة والعالم المحتضَر، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الإنسانية، وإحياءِ الضمير البشري.

يقول في بيت: «إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه، أشرق العالَم واستيقظ الكون».

ويقول في قصيدة: «لستُ أعلم بالتأكيد مصدرَ هذا الصبح، الذي يطلعُ على هذا العالَم كلَّ يوم، ولستُ أعلم سرَّه؛ ولكني أعلم أن السَّحَر الذي يهتزُّ له هذا العالَم المظلم ويولِّي به ليل الإنسانية الحالك، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق»[1].

إن قوة عالي الهمَّة خارقة للعادة، مُحيِّرَةٌ للعقدة، معجِزَة للبشر؛ لأنها مُسْتَمَدَّة من رسالته وإيمانه، فهو أداةٌ للقدرة الإلهية، وقوةٌ قاهرة، لا تصدُّها الجبال، ولا تقف في سبيلها البحار، «إن يد المؤمن أداةُ القدرة الإلهية، فهي غلَّابة، حلَّالة للعقد والمشكلات، فتَّاحةٌ للأبواب المقفلة، لَبِقة صَنَاع حاذقة. إن المؤمن جسمُه من تراب، فطرتُه من نور؛ عبدٌ متخلِّقٌ بأخلاق مولاه، قلبُه غني عن العالمين».

---

(١) «روائع إقبال» (ص٨٣- ٨٤).

لم يزل العالَم يعوزه لوعة ذلك القلب.

قد هزئ المسلمون المؤمنون في عصرهم الأول من الجبال والبحار، وشقُّوا طريقهم غير محتفلين بما يعترضهم من أشواكٍ وعقبات.

عالي الهمة:

يجمعُ بين التسامح، ورحابةِ الصدد، وكثرةِ الصفح، والشدَّة في التمسك بالدين، والغضبِ للحق، والثورةِ على الباطل، وشدةِ شكيمته إذا أَبَى، ولا يكون المثلَ الكاملَ لدينه، والصورة الصادقة للإسلام حتى يجمع بين هذه الأخلاق المتنوِّعة، فيجمعَ بين الشدَّةَ واللين والغضب والرحمة، والصلابة والمرونة، والعفَّة والنزاهة، ويكون في ذلك آيةً من آيات الله، ومعجزةً من معجزات الرسول ﷺ.

«إنه الميزان العادل، والقسطاسُ المستقيم به يُعلم رضا الله وسخطه، وبه يُعرف الحسنُ من القبيح، فما راق في نظره، فهو حسن، وما استقبحه فهو طائش، وفي عزائمه تتجلَّى إرادةُ الله.

وهو القرآنُ الناطق، وهو الدين يسعى على قدميه. ثم عن حياته متوافقة متشابهة كالطبيعة، فالصبح يَطلع كل يوم، والليلُ يتبع النهار، لا تخلُّف فيه، ولا تناقض. وهو صاحبُ معانٍ كثيرة، ونغمةٍ واحدة، فهو كسورةِ «الرَّحمن» في القرآن، تتجدد معانيه وتتكرر فيه آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾».

□ وقد صدق الشاعر، فالمسلم لم يزل يُتحف كلَّ عصر بعلومه وتوجيهاته، ويُنير ظلماتِ كل عصر بنوره وضيائه، ويضربُ على وتر واحد، ويكرِّر رسالة الأنبياء، ويقول لكل جيل: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، فهو كالصبح جديدٌ وقديم، فهو في جِدَّته ليس أجدُّ منه، وهو في قِدَمه ليس شيءٌ أقدم منه؛ هو قديمٌ لكنه يتجدَّد به العالم، ويتجدَّد به الكائنات، وتنتعش به القوى، وتستيقظُ به الأجسام والقلوب، والعقول؛ ثم جديدٌ بنفسه، تتجددُ قواه، ويتجددُ نشاطه، وتتفتحُ قريحته مع العصور؛ علمه سيَّار، وعقلُه مبتكر، ونفسُه طموح، وهمَّته وثَّابة، وهو كالمطر كلُّ قطرةٍ غيرُ الأولى، ولكنها قطراتُ مطر، كلها تحيي الأرض، وكلها تُنبت النبات، وكلها تَسقي المزارع والأشجار، وكلها تفتحُ الأزهار، وكلها تكوِّن الأنهار، وهو معنى قول النبي ﷺ: **«أمتي كالمطر لا يُدْرى أأوَّلُه خيرٌ أم آخرُه»**.

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقًا:

□ ويقول محمد إقبال: «إن المسلم كالشمس إذا غرَبت في جهة، طلعت في جهةٍ أخرى فلا تزال طالعة».

وقد صدق، فإن الإسلام لم ينكَّب في ناحية من نواحي العالم، ولم يخسر في جانب دولة إلَّا وقامت له دولةٌ في جانب آخر؛ ولم تسقط له رايةٌ إلَّا وخفقت له رايةٌ أخرى؛ ولم يغِب له نجم، إلَّا وطلع له نجمٌ آخر.

لقد كانت خسارةُ الأندلس الإسلامية كارثةً كبيرة، ومصابًا عظيمًا، ولكن عوَّض الإسلام بها بدولةٍ فتيَّة من أعظم دول العالم، هي دولة آل عثمان في تركيا قامت في نفس القارة الأوروبية، وجثَمت على صدر الدول والأمم التي انتزعت الأندلس الإسلامية، وأجلت المسلمين من وطنهم العربي الإسلامي.

وكان سقوطُ غرناطة، وأوج الدولة العثمانية، في عهد سليمان القانوني،

حادثَينِ في عصر واحد. ونُكِب العالم الإسلامي، ونُكِبَت بغدادُ بغارة التتار، وانطمست معالم الحضارةِ الإسلامية، وزُلزل المسلمون زلزالًا شديدًا، ولكن في نفس هذه الفترة كانت الدولةُ المسلمة في الهند تتسع وتزدهر.

وأُصيب العالَمُ الإسلامي بهزاتٍ عنيفة، وقواصمَ مؤلمة في فجر هذا القرن المسيحي على أيدي الأوروبيين، فقد اقتسمت الدولةُ الأوروبية تراثَ الدولة العثمانية كمالٍ سائب، واغتصبت مملكتها في أفريقيا، وتقاسم الحلفاءُ سورية وفلسطين والعراق، ولكن تَبِعَ هذا كلَّه اليقظةُ الإسلامية الهائلة، والوعيُ السياسي القويم، والطموحُ إلى الاستقلال والحرية، والحركات الإسلامية المختلفة التي كان يجيشُ بها العالَمَ الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

ونُكب المسلمون في العهد الأخير نكباتٍ عظيمةً في الشرق الأقصى والأوسط، وخسرت الدولُ العربية فلسطينَ العربية الإسلامية، ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتانِ فتيتان في الشرق، إحداهما دولة باكستان والأخرى إندونيسيا.

وهذا لم يزل التاريخُ الإسلامي متأرجحًا بين الأسفل والأعلى؛ فما تسفَّل منه جانبٌ إلَّا وترفَّع جانب آخر، كالأرجوحة تمامًا، ولم تتوارَ شمسُه في أفق إلَّا وبزغت في أفق آخر، وذلك لأن الإسلامَ رسالةُ الله الأخيرة التي لا رسالةَ بعدها، والمسلمون هم الأمةُ الأخيرة، التي لا أمةَ بعدهم؛ فإذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة، وإذا هلكوا فقد غرِقت السفينة التي تحمل الذخيرة»[1].

---

(١) المصدر السابق (ص٨٥).

عالي الهمّة:

يعرفُ قيمةَ نفسه، وشرفَ إنسانيَّته، يعرف ذلك الجوَّ الفسيح الذي هيّأه الله لطيرانه وتحليقه، ويعرفُ تلك الكنوزَ البديعة، والقوى الجبَّارة، والمواهبَ العظيمة التي أودعها اللهُ في باطنه، يعرف معنى سجودِ الملائكة لأبيه آدم، والإشارةُ في ذلك، وأنه إذا كانت الملائكة الذين لا يعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون الذين يتصرَّفون في هذا الكون بأمر الله، ويبلِّغون رسالاته، فإذا خضعوا لآدمَ أبيهم فقد خضع له الكونُ بالأوْلى، ولذرِّيته إن استقاموا على منهج الله.

كَلِمَاتٌ للحياة:

«عجبًا لك أيها المسلم! تجلَّت لك الآفاق، وغابت عنك نفسُك، إلى متى تظل غافلًا جاهلًا؟ وتجلس ضائعًا عاطلًا، إنَّ نورك الوهَّاج أنار العالَمَ القديم، ونسخ الليلَ البهيم، ولا تزال (اليد البيضاء) التي ورثتَها عن موسى في كمِّك، تخطُّ حدودَ الآفاق الضيِّقة، فأنت السابقُ لها والفائق عليها، فقد كنتَ ولم تكن، وستكون ولا تكون، هل تخافُ الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟ لقد كان جديرًا بالموت أن يخافك، فأنت تكمن له وترصد به.

اعلم يقينًا، أن الكريم إذا وَهب شيئًا، لا يسلبُه ولا يشرده، وليس حتفُ ابن آدم في فراق الروح، إنما حتفُه في ضعف الإيمان، والحرمان من اليقين»[1].

□ «افتح عينيك -أيها الزهرُ النائم- مثلَ النرجس الذي لا يُطبق عينه

---

(١) «زبور عجم» لمحمد إقبال (ص١٦٤).

لحظة، ولا يَعرف الكرى إليه سبيلًا، لقد أغار على وكرنا الأعداء، ونهبوا كلَّ ما فيه، من كنوز وخيرات، ألا يكفي هدير الحمام، وصفيرُ الأذان، وأنينُ القلوب والأرواح أن يُوقظك؟! انتبه من هذا السُّبات العميق، الذي طال أمدُه واشتدَّت وطأته.

لقد بدأت الشمسُ رحلتها المباركة المتكررة، وارتفع عمودُ الصباح المنير في بحر الظلمات، وحَزَمت القوافلُ في الجبال والصحاري أمتعتها، وضربت أجراسَ الرحيل، فما لكِ أيتها العينُ الساهرة! التي خُلقت لمراقبة الإنسانية، وحراسة الضعفاء، تنامين، ولا تنظرين إلى ما يدورُ حولكِ من الأحداث والتقلُّبات، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمدُه، واشتدت وطأته.

لقد أصبح بحرُك ساكنًا كالصحراء، لقد فقد طبيعتَه وجمُد ووقف. فلا مدَّ فيه ولا جزْر، ولا زيادةَ فيه ولا نقص، عجبًا لهذا البحر الذي لا يَهيج ولا يموج، وليس فيه تمساحٌ طموحٌ مخامر، ولا موجٌ عارمٌ ثائر، لقد كان جديرًا بك أن تقفز من حدوده الضيقة الهادئة، وتفيضَ على البراري والقِفار والنِّجاد والأغوار، انتبه من سُباتك العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته.

اعلم أن الوطن جسدٌ من تراب، والدينُ هو الروح، ولا حياة للجسد والنفس، إلَّا بارتباط الجسد والروح، انهض أيَّها المسلم! وفي إحدى يديك «المصحف» وفي الأخرى «السيف»، فابجتماعهما تسعدُ البشرية، وتخصب المدينة، انتبه من السُبات العميق الذي طال أمدُه واشتدت وطأته.

أنت الناموسُ الأزلي حارسٌ وأمين، ولسيِّد هذا الكون يسار ويمين[١]، لقد كانت نشأتُك من التراب، ولكن بك قِوام العالم وبقاءُ الأمم، اشرب كأسًا فائضةً من اليقين، وانهض من حضيض الظن والتخمين، انتبهْ من السُبات العميق، الذي طال أمده، واشتدت وطأته.

الغِياث من الإفرنج الذين خلَبوا العقول، وسحَروا النفوس، الغياث مِن هؤلاء الذين خدعوا مرةً بالرقة والدلال، ومرةً بالقيود والأغلال، وتارة مثَّلوا دور «شيرين»، وطورًا لعبوا دور «أبرويز»[٢]، لقد أصبح العالَم كله خرابًا يبابًا بإغارتهم وغزوهم.

يا بانيَ الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالَم من جديد، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته»[٣].

□ «لقد هبَّتْ عليَّ نفحة مُنْعِشة من نسيم السَّحَر في الصباح فناجتني، وقالت لي: إنَّ الذي عرَف نفسه وعرف قيمته ومركزه، لا يليق به إلَّا عروشُ الملوك وأسِرَّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قُوام، ولا شرف ولا كرامة إلَّا بهذه «المعرفة»، فإذا ملكتَها ملكتَ العالم، وإذا فقدتها، أصبحت مِن سَقَط المتاع، إنه يتربَّى في مدرسة شعري وأدبي شبابٌ لا يملكون درهمًا ولا دينارًا، ولكنهم يملكون صولةَ السلاطين، ويُحسنون آداب

---

(١) يعني أنه آلة بيد القدرة الإلهية.

(٢) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند، تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال، و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها، واستأثر بها.

(٣) «زبور عجم» (ص١١٦- ١١٨) باختصار وتوسُّع، و«روائع إقبال» (ص٨٩- ٩٢) باختصار.

الملوك، إنَّ لك الخِيار، فاختر ما شئت.

ولكنني بدوري، لم يعجبني الفرار من الحياة، والعكوف في الزوايا والخلوات.

لقد هيَّأك الله -أيها الشاب المسلم لاقتناص «هُما»[١]، وما هذه الطيور والأسماك التي تملأ العالم إلَّا للتمرُّن عليها في بَدء أمرك، ويتلهَّى بها غيرك. وما نُطقك بالشهادتيْن -أيها المسلم- سواءً كنت عربيًّا أو أعجميًّا، إلَّا حديثًا غريبًا، حتى يشهد بك قلبك»[٢].

«إنَّ كلَّ ما في العالَم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكيَّة، راحلٌ زائل، وغائب آفِل، أنت -عالي الهمة- بطل المعركة، وقائدُ الجيش، وكلُّ ما حولك من سافلٍ وعالٍ، ورخيصٍ وغالٍ، من جنودك وأتباعك.

أسفًا لك، أيها الرجل! لم تقدِّر نفسك، ولم تحسِب لها حسابًا، ما أشدَّ جهلك، وما أضيقَ نظرك! إلى متى تجري وراء الدنيا الذليلة وتعبدها وتخضع لها؟ إمَّا أن ترفضها رفضًا باتًّا، وتزهد فيها وتتبتَّل، وإما أن تملك ناصيتها وتَسُود وتحكم، لا منزلة بين المنزلتين، ولا توسطَّ بين الشهادتين».

بل نقول بمرامى المؤمن القوي الطموح.. ازهد وتبتل واملك ناصيتها وسد واحكم كدواد وسليمان عليهما السلام.. وعمر بن عبد العزيز..

فـنحن أنـاس لا توسُّـطَ عنـدنا لنا الـصَّدْرُ دون العـالمِين أو القـبرُ

---

(١) طائر أُسْطُوري في الأدب الفارسي والأردي، يُضرَب به المثل في اليُمْن والسعادة، يُقال: أنه ما أظلَّ إنسانًا، وما طار فوق رأسه إنسان إلاَّ وكان ملكًا في يوم من الأيام!!!.

(٢) «بال جبريل» لإقبال (ص٦٧- ٦٨).

□ إن السجدة التي هي جديرةٌ بالاهتمام هي السجدة التي تحرِّم عليك كل سجدة لغير الله.

□ إن هذا الكونَ الفسيح ليس وكرُك الذي تستريح فيه، والغايةُ التي تنتهي إليها؛ ليست هذه الأرض، التي مادتُها التراب، مصدرُ روحك المتوقِّدة الوثَّابة، وعاطفتُك الملتهبة؛ أنت مادةُ الكون، وليس الكون مادَّتُك.

كُن في تقدُّم دائم، ورحلة دائمة، وحَطِّم هذا الجبل الأصمَّ الذي يعترض في طريقك، وتمرَّد على هذا الزمان والمكان، وتحرَّر من قيودهما، وانطلق من حدودهما، فإن المؤمن إذا عرف قيمةَ نفسه اقتنص هذا العالم، واقتنص هذه الأرضَ والسماء في بعض ما يقتنص».

«إن هنالك عوالمَ وأكوانًا، لم تقع عليها عينٌ بعد؛ فإن ضمير الوجود لم يفرغ جَعبته، ولا يزال يأتي بجديد؛ وإن هذه العوالِمَ متشوِّقة لهجومك، وغارتك، وزحفك؛ متشوِّقة لأبكار أفكارك، وبدائع أعمالك؛ إن هذا العالَم يدور دورتَه؛ لتنكشف عليك نفسك وحقيقتك.

أنت فاتحُ هذا العالم، ويعجزُ البيانُ عن وصفك، وتعجزُ الملائكة عن غاياتك»[1].

فَدَتْ نفسي وما مَلَكت يميني ... فوارسَ صَدَّقَتْ فيهم ظنوني

فوارسَ لا يَمَلُّون المنايا ... إذا دارت رَحَى الحرب الزبون[2]

---

(١) «روائع إقبال» (ص١٣٩- ١٤٠).

(٢) البيتان لأبي الغول الطهوي. والحرب الزَّبون: التي تصدم الناس وتدفعهم.

يا عالي الهمة أنت حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح:

جدِّد في بني أمَّتك الإيمان واليقين، فقد عراهم الظنُّ والتخمين، إنَّ مقامك ومنزلك وراءَ هذه القبة الزرقاءِ والسماوات العُلَى، مقامك في غُرف الفردوس الأعلى.. ينظر إليك الذين في أرض الجنة كما ينظرُ الناس إلى النجم الغابر في الأفق لتفاضل ما بينهم.

إنَّ رَكْبَك يمشي فوق النجوم النَّيِّرة والكواكب المتلألئة.

إنَّ هذا الكونَ بما فيه ومن فيه، سائرٌ إلى الزَّوال والفناء، ولكنَّك تملك الآمادَ والأبعاد، فإنك أنت رسالةُ الله الخالدةُ الأخيرة، فأنت خالدٌ مع خلود رسالتك[1]، ودائمٌ بدوام دورك ومهمتك.

□ إن دماءك القانيةَ عطرُ حِنَّاءٍ لعروس الوردة الحمراء؛ فبدمائك السخيِّة الطاهرة تنتعشُ الورود والأزهار، ويَجري في عرقها ماءُ الحياة.

□ إن نسبك المعنوي متَّصل بسيدنا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فأنت باني الحرم ورافع قواعد البيت العتيق.

□ إن فطرتَك حارسةٌ أمينة لإمكانات الحياة وأسرار الوجود، فأنت المحَكُّ الأصيلُ لجوهر الكون وسرِّ الحياة، وإنَّ ما حملته النُّبُوَّة من تحفة غالية وهدية ثمينة من عالم الماء والتراب إلى عالَم الخلود الذي لا يزول ولا يحول، إنما هي أنت، وقد انكشف هذا السرُّ الدقيق بماضي الأمة الحنيفية والملَّة السمحة البيضاء، إنك أنت الوصيُّ على هذه الشعوب والأمم.

□ عُدْ مَرَّةً ثانيةً إلى دروس الصدق والعدل والشجاعة، فالكونُ في

---

(١) وَضَع نصب عينيْك قول الله لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

انتظارك، وقيادة العالَم تتطلع إليك وتتشرَّف نحوك.

□ حَطِّم -أيها المسلم- أصنامَ اللون واللحم والدم، وذُبْ في بوتقة الملَّة الحنيفية السمحة، لتُصهَر صهرًا جديدًا، فلا فروقَ ولا امتيازات، ولا جنسيَّات ووطنيَّات، ولا عصبيَّات وقوميَّات.

□ إلى متى تتمتَّعُ برفقة الطيور المغرِّدة في الحديقة الفيحاء بين الأغصان الرطبة البليلة، أليس بجناحيْك قوةُ طيران الصقور المحلِّقة في الفضاء، التي تُنشئ أوكارها في الجبال الجرداء والشمَّاء.

□ إنه لا تُغني السيوف الصارمة، والعقول الراجحة، في الرِّقِّ والعبوديَّة فنيلًا، ولا تتحطَّم سلاسل العبوديَّة وأصفادَ الذُّلِّ والصَّغَار إلَّا بطعم الإيمان وذَوْق اليقين.

مَن الذي يستطيع أن يقدِّر قوةَ المؤمن وصولَتَهُ؟! إنَّ نظرةً منه والتفاتةً تكفي لتغيير المقادير، وقَلْب الأوضاع، وهل الولاية والصلاحُ والغلبة والسلطان، وعِلْم الأسماء وسعةُ الإدراك، إلَّا تفسيرًا لكلمة الإيمان».

ولكِنَّ البصيرة الإبراهيمية لا تتأتَّى بسهولة، ولا تُوهَب مجَّانًا، فكم من الأهواء والأطماع تختفي في مسارب النفس، وتكوِّن لها أعشاشًا وأوكارًا.

□ ألَا إن اليقين المحكم الجازم، والعملَ المستمر الحاسم، ومحبَّةَ الرسول الأعظم فاتحِ الشعوب والأمم ﷺ هي السيوفُ المسلولةُ بأيدي الرجال الأبطال في معركة الحياة.

□ ماذا ينبغي أن يتحلَّى به الرَّجُل؟ قلبٌ سليم، ونبْعٌ صافٍ، ودمٌ فائر، ونظرةٌ عفيفة، ونفْسٌ قلقة ولوعة طموحة.

□أنت أيها المسلم سِرُّ الوجود، فانكشِف على نفسك قبل أن تكشف على غيرك، وبحْ بِسِرِّك لِسِرِّك، وكن أمين «الذات» وترجمان أمر الله.

□لقد قطَّع الهوى والطَّمَع بني آدم إِربًا إربًا، ومزَّقهم شرَّ ممزَّق، فكُنْ أنت -أيها المسلم- نغمة الأُخُوة الحانية، ولسان الحبِّ البليغ.

□ يا ملتزمَ الساحل واللاجئ إلى الشاطئ، اقفزْ بنفسك في خضم البحر فلا تحدَّك حدود، ولا تغلَّك قيود، لقد يُرَى على جناحيْك غبار اللون والنسل والوطن، فرَفْرِفْ بجناحيْك يا طائِرَ الحرم قل أن تُحَلِّق في الفضاء وانفُضْ عنك هذا الغُبَار.

□ اسبر أغوار قلبك ونفسك، وانزل في الأعماق، فإنها سرُّك، وارفعْ عن نفسِك نيْر الصباح والمساء وحطم كل القيود والأغلال.. كل قيود الأرض وكل أوهاق وأغلال العبودية لكل ما سوى الله، تعرف قدر الحرية، فتمام الحرية في العبودية لرب البريَّة، والمكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم.

وخُلِقْتَ طليقًا كطيف النسيم، وحُرًّا كنور الضُّحَى في سَمَاه
تُحَلِّق كالطَّيْر أين اندفَعتَ، وتَشدو بما شاءَ وحيُ الإلهْ
تُسَبِّح بين ورود الصباح، وتنعمُ بالنُّورِ أنَّى تراهْ
وتمشي -كما شئت- بين المُروج، وتقطف ورْد الرُّبَا في رُباهْ

كذا صاغك الله، يا ابن الوجود، وألْقَتْك في الكونِ هذي الحياهْ
فمالك ترضى بِذُلِّ القيود، وتَحْني لمن كَبَّلُوك الجباه؟
وتُسكِتُ في النَفس صوت السماء القويَّ إذا ما تَغنَّى صداه؟

وتُطبَقُ أجفانَك النَّيِّرات عن الفجْر، والفجرُ عذْبٌ ضياه؟
وتَقنَعُ بالعيش بين الكهوف فأين النشيد؟ وأين الإباه؟
أَتَخْشى نداء السماء الجميل؟ أترهبُ نور الفضا في ضُحَاه؟
ألَا نهضْ وسِرْ في سبيل الحياة، فمن نام لم تنتظرْهُ الحياه؟
ولا تخش ممَّا وراء التِّلاع.. فما ثَمَّ إلَّا الضُّحى في صِبَاه..
وإلَّا ربيعُ الوجود الغريرُ، يطرِّزُ بالورد ضافي رداه..
وإلا أريجُ الزهور الصِّباحِ، ونور الأشعة بين المياه
وإلَّا حَمامُ المروج الأنيقُ، يُغرِّدُ، منطلِقًا في غناه..
إلى النُّور! فالنورُ عذب جميلٌ، إلى النور! فالنور وصف الإلهْ

□ إذا صادَفَتْك معركة الحياة فكُنْ لها حديدًا صُلْبًا، وإذا غازلتْك ليلة الحُبِّ فكُن لها حريرًا ناعِمًا، شُقَّ لك الطريقَ في التِباب القفار، وحَطِّمْ الجبال بسيْلك العَرِم وتيارك العنيف، وإن اعترضتك حديقة في الطريق، فناغمها بجدولك الجميل المنساب، الذي له خرير يُسكِرُ النفوسَ ويُبْهِرُ الألباب.

□ إنَّ علمك وحبَّك لا يعرفانِ الثغور والحدود، ولا يعتريهما الزَّوال والفناء، وليس في قيثارةِ الكون أنشودةٌ أحلى منك.

□ عَلِّم البلابل دروس التغريد، وانفخ في الطيور رُوح الخِفَّة والنَّشاط، وافتح أكمامَ الزُّهور والرياحين، فأنت نسيمُ السَّحَر، ونفحة الروضة النَّدِيَّة.

□ لقد التهبت جمرةُ الحب والإيمان والنخوة في بلاد الإسلام كَرَّةً ثانية، وأصبحت الأرض حلبةً للفرسان من كُلِّ مسلم عالي الهمّة مجيد، ومن

الأُباه الشُّمِّ ذوي الهِمَّة القعساء والنَّظر البعيد.

□ إن اليقين المسلم عالي الهمَّة وإيمانه في عالَم الظَّن والتخمين، كمصباح الرَّاهب في الصحراء في ظلمات الليل البهيم، ما الذي أصاح بعروش كِسرى وقيصر، وقضى على ظلمهما وجوْرهما؟ إنه قوّة علي، وفقْر أبي ذر، وصِدْق سلمان.

□ انظرْ إلى ركْب المؤمنين الأحرار، كيف يَشُقُّ طريقه في أُبَّهَةٍ وجمال، ويتطلَّعُ إليه من فتحات الأبواب أسْرَى القرون والأجيال.

□ إنَّ هذه الشُّعلة مِن طين، عندما تتحلَّى بالإيمان واليقين، تكتسي بأجنحة الرُّوحِ الأمين، وتطيرُ بها في العالَمين.